حكايات سرية جداً

اسم الكتاب:	حكايات سرية جدا
اسم الكاتبة:	دعاء إبراهيم عبدالحميد
تصميم الغلاف:	عبدالرحمن
الإخراج الفنيّ:	جمال عبدالرحيم
الطبعة:	الأولى
رقم الإيداع:	3959 / 2023
الترقيم الدولي:	978-977-86560-3-9

Gmail	almaktaba79@gmail.com
facebook	Facebook.com/arabiclibrary2017
	01030365801 - 01014977934

للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

حكايات سرية جداً

دعاء إبراهيم عبد الحميد

للنشر والتوزيع
Arabic Library

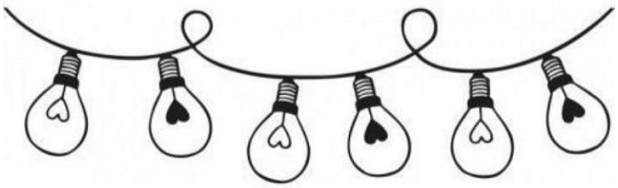

إلى الرجل الصغير السن، الكبير القلب،

إلى ابني **صالح.**

الحياة محطات قصيرة، ولكل محطة قصة نعيشها بأرواحنا؛ فأحسِنوا المرور واتركوا بصمة حب.

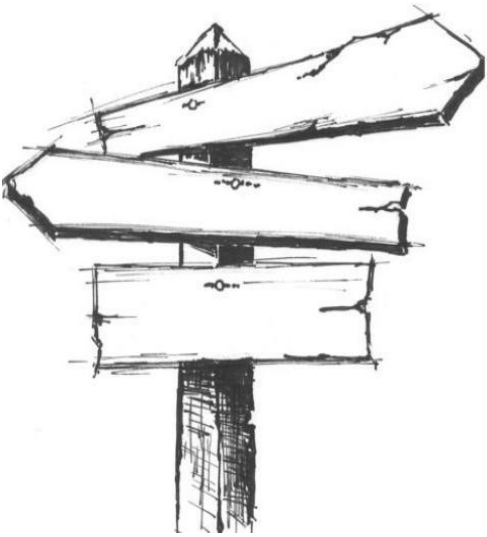

اليوم سأنتقل إلى بلد أخرى أقل ازدحامًا من القاهرة، سأبتعد عن ضجيج العاصمة الذي نسج من روحي خيوطًا متشابكة كبيت العنكبوت، مع أضعف لمسة ينهار بلا أمل في ترميمه أو إعادته كما كان، أهرب من مواجهة الواقع بكل ما فيه من حماقة، أتأمل ذكرياتي أجدني غائبة في حضرة الجميع! لا أسمع سوى صدى صوتي يتردد داخلي، تفتك الأفكار برأسي، أتحطم من الداخل، أسمع صوت انكسار روحي يصم أذني، مهما علا الضجيج حولي؛ لا ألتفت، أنا تائهة، ضائعة، كالبركان أثور وأهدأ ولا يشعر بثورتي أحد.

مع بداية الغروب ركبت عربة القطار المتجهة إلى المنصورة لأقضي إجازة طويلة في بيت جدتي التي أستسلم لعناقها الدافئ فيُنسيني ما سلف من قسوة الحياة، فأعود إلى عالمي مغسولة بنفحات طيبتها، إنها الرحمة التي تحمل بين ملامحها قسمات من وجه أمي الغائب تحت التراب، كلما ضاقت بي الحياة واشتقت لرائحة أمي؛ أجد براح صدر جدتي يشفي حنيني ويُضمد حرماني.

الشوارع مزدحمة، الكثيرون يقصدون ذات عربة القطار التي أقصدها، تهافت إلى سمعي صوت عبد الوهاب ينبعث من المذياع يردد «جئت لا أعلم من أين ولكني أتيتُ ولقد أبصرت أمامي طريقًا فمشيتُ، وسأبقى ثائرًا إن شئت هذا أم أبيت، كيف جئت كيف

أبصرت طريقي؟ لست أدري، أنا لا أذكر شيئًا من حياتي الماضية، أنا لا أعلم شيئًا من حياتي الآتية لي غير أني لست أدري!».

شققت الزحام ثم اتخذت مقعدًا بجوار النافذة -كما أحب-

لمحت فتاة قادمة نحو المقعد الفارغ بجواري، استأذنت وجلست بهدوء، تحمل حقيبة صغيرة خلفها وتعانق دفتر ورقي بين ذراعيها، ترتدي فستانًا أسود طويل، عينيها الباسمتين تُجبرانك على التبسُم حتى لو حاولت تجاهلها!

أخرجت من حقيبتها شطائر رائحتها طازجة كأنما اشترتها للتو، وضعتها في منتصف المقعد وبتودد سألتني مشاركتها في تلك الوجبة الخفيفة، قبلت وليس بعادتي مشاركة الآخرين طعامهم في القطار! لربما حمسني أسلوبها المرح المتودد وكأننا أصدقاء منذ زمن! سألتني بود:

_ما اسمك؟

فقلت:

_سبيل، وأنتِ؟

أجابت على الفور:

_حورية.

تثاءبت وقد بدا عليها الإرهاق فسألتها:

_أخبريني في أي محطة ستنزلين؟

سألتها وكنت أخشى أن تنام فتفوت محطتها، أجابت وهي تحاول كظم تثاؤبها:

_مشواري طويل، أنا متجهة نحو المنصورة.

رفعت كفيها حذو كتفيها بإيماءة دهشة ثم أكملت:

_وصلت هنا منذ قليل اشتريت بعض المخبوزات وانتظرت موعد القطار العائد مرة أخرى وركبت فيه.

اندهشت لفعلتها فسألتها بفضول:

_ولماذا؟

ابتسمت وقالت متنهدة:

_فرت مني الكلمات وضاعت الأفكار ونضبت حكاياتي؛ فجئت أبحث عنها في الطرقات وبين وجوه الناس.

لم أفهم ما قصدته فقلت بحرج:

_لم أفهمك، هل أنتِ صحفية؟

_لا، بل كاتبة، أسرق الحكايات من حولي وأنسجها بقلمي.

سكتت قليلا ثم أكملت:

_أتسمعين عن حبسة القراءة! تلك الحالة التي تصيب القارئ بصدود عن القراءة لفترة رغم ولعه بها!

أنا أعاني من حبسة الكتابة، أمسك القلم فيفر مني وحي الكلمات، جئت أبحث عنها في الطرقات والشوارع لربما أجد مصدر إلهامي.

ابتسمت بدوري وقد فهمت ما تقصد فما أكثر الحكايات في وجوه الناس وفي الطرقات، بل وشُرف المنازل على بساطتها تقص على مخيلتك ألف قصة.

تحرك القطار وعلا ضجيجه واتخذ كل راكب من مقعده وسيلة للنوم، أما هي فظلت تراقب الطريق بشغف ثم تمسك بقلمها من وقت لآخر وتغوص في كتاباتها حتى غلبها النعاس وسقط دفترها الوردي وقلمها.

التقطت الدفتر والقلم ثم حولت بصري ناحيتها فنظرت لي بعين ناعسة وقالت:

«سأعيرك كلماتي قليلا، هذه فرصة لا يحظى بها الكثيرون، هنيئًا لكِ حكاياتي حتى أستيقظ».

قالتها وتوسدت ذراعيها وغاصت في نوم عميق، أما أنا، فترددت قليلًا قبل فتح الدفتر، لست مولعة بالقراءة لكني غارقة في موجات الحزن ولا بد من مقاومتها فبدأت في فتح الدفتر محاولة التهام الحروف كي أجد فيها ما يؤنس وحدتي وشرودي، لمحت بين قسمات وجهها الناعس لمحة لطف؛ كأنما أرسلها الله لي، الطيبون تشعر بهم بين طيات كلماتهم، تجد لذة أثرهم في نفسك فور التحدث إليهم، التواضع من شيمهم، الطيبون يسكنون روحك، يرتبون شتاتك، ويبثون فيك الطمأنينة؛ كنبتة الريحان كلما اقتربت منها، أخذك عطرها.

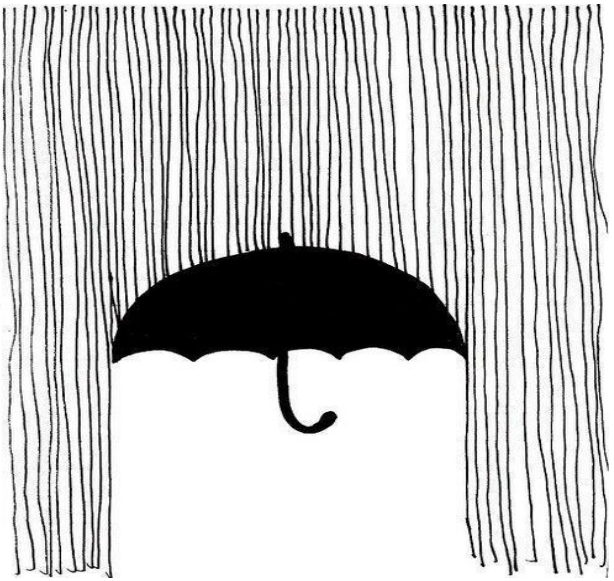

الحكاية الأولى

شتاء ديسمبر

خرجت من داري في الصباح الباكر أحمل فوق رأسي مَشَنَّة ملآنة بالخضراوات، سرت بخطى متعرجة أتعثر في طرف جلبابي البالي الذي لا يخلو من الثقوب، لكن لا بأس؛ فقد ارتديت قميصا من الصوف ورثته عن زوجي يشعرني بالدفئ ويكسي تلك الثقوب من الداخل. الطريق معتم بلون البياض بفعل الشبورة التي تجعلني أشعر أنني أشق السحاب بحملي الثقيل دون أن أرى الطريق الممهد أمامي، تغوص قدمي في الأرض الطينية الملطخة بأمطار شتاء ديسمبر، أحاول السيطرة على توازن المشنة في ذات الوقت الذي أجاهد فيه كي لا أنزلق.

«هيا يا شادية، أسرعي امتلأت السيارة بالركاب»

قالها العم صابر سائق العربة التي تقلني كل يوم إلى سوق الخضار، وضعت المشنة في مدخل السيارة وجلست بجوارها مستندة على الباب يداعب أنفي الهواء البارد القادم من النافذة، تذكرت أني نسيت السمن الذي طلبته مني إحدى زبائني على السلم،

أخرجت هاتفي الصغير المعلق في رقبتي بحبل قطني، اتصلت على ابنتي فأجابتني بصوت ناعس، أخبرتها أن تقوم بإدخال السمن وتستعد للذهاب إلى كليتها، سألتني بضيق إن كنت قد تركت لها مالا لشراء المعدات الطبية التي طلبوها منها في كلية التمريض؟ تنهدت بحزن وقلت:

«سأدبرها لكِ اليوم بإذن الله»

أغلقت الخط ثم استعددت للنزول بعدما أخرجت الجيب القماشي المعلق في رقبتي ودفعت الأجرة، فرغ الجيب فحمدت الله ودسسته في ملابسي واستعنت بالله، اتجهت ناحية المكان الذي اعتدت الجلوس فيه لأبيع ما في جعبتي، أنادي من حين لآخر على الزبائن «الكيلو ونص بعشرة».

السوق راكد لا أحد يبيع أو يشتري، هطلت الأمطار فزاد الطين بلة، جلست أراقب المارة من حين لآخر أحثهم على الشراء، أتتني امرأة أربعينية تتفحص بضاعتي، تنتقي الخضراوات ثم قالت بفهلوية «أتمي البيعة، الكيلوان بعشرة».

شعرت بقلة حيلة ثم هززت رأسي موافقة، قبلت العشرة جنيهات ثم وضعتها في الجيب القماش المعلق حول عنقي، مرت أربع ساعات لم أبع سوى بعشرين جنيه.

شعرت بالجوع، داعبت أنفي رائحة الفلافل الساخنة القادمة من المطعم المجاور، ليس بحوزتي أي نقود فكة فحملت خمس حزمات من الجرجير واتجهت ناحية المطعم أعطيت الجرجير لسمير بائع السندوتشات وطلبت منه نصف رغيف فلافل، فابتسم لي وأعطاني رغيف كامل، شكرته ثم انصرفت عائدة إلى مجلسي، أقضم الفلافل بانتشاء، تداعب الفلافل الساخنة شفتيّ الباردة فتسري رعدة تشق عمودي الفقري، تذكرت جلسات العلاج الطبيعي التي وصفها لي الطبيب ليداوي الفقرات المنزلقة من أثر حمل المشنة الثقيلة كل يوم!

جاء محروس ابن قريتي وجلس بجواري حاملا كوبين من الشاي الساخن يتصاعد منه البخار فأخذت كوبي لأتدفأ به.

جلس يخبرني عن ابنه الذي تخرج من معهد الخدمة الاجتماعية وأنه استلم عمله عند أحد تجار سوق العبور، وكم فتح الله عليه براتب كبير، إنه يرغب في خطبة ابنتي، ذلك الحديث الذي يجلب المشاكل بيني وبين ابنتي التي تظن أنها ستتزوج طبيبا يومًا ما!

اقترب اليوم على الانتهاء وشرع الباعة في جمع بضاعتهم بينما أنا جالسة في مكاني متجمدة من البرودة ومن قلة الحيلة!

كيف سأعود لابنتي بلا مال! خنقتني عبرات سلكت طريقها إلى جفوني، رفعت رأسي إلى السماء لا أتفوه بكلمة لكن قلبي يعج بالتوسلات، لاحظت الخيط الأسود الذي شق باطن السماء، ثم ارتفع صوت أذان المغرب.

لم يعد هناك أمل، ضاقت وأحكمت القيد حول عُنُقي، انتهى اليوم ولابد أن أغادر الآن، وقفت سيارة فارهة أمامي خرجت

منها امرأة تجاوزت الخمسين من عمرها، فرزت المشنة الموضوعة أمامي ثم سألتني:

«هل لديكِ المزيد»

قلت لها وقد انشرحت أساريري:

«معذرة، هذه آخر ما تبقى لدي من الخضروات»

فتحت حقيبتها وأخرجت المال لتدفع ثمن البضاعة كلها، سقط منها مبلغ من المال دون أن تدري، أعطتني حساب الخضروات ثم شرعت في تعبئتها في السيارة بينما أراقب المال الملقى بجوار السيارة، أنظر للمال الذي في يدي، أرسله الله لي بعد صبر طويل والمال الذي ستفقده المرأة التي كانت سبب في فك ضيقتي!

وقفت بهدوء ثم اتجهت ناحية المال الملقى على الأرض، التقطه ثم أعطيته للمرأة ثم قلت: «سقط من حقيبتك».

نظرت المرأة للمال بلهفة ثم قالت بامتنان:

«إنها مصروفات جامعة ابنتي، حمدا لله وشكرا لكِ على أمانتك».

ابتسمت في رضا وهي تدُس في يدي مبلغ صغير مكافأة لي على فعلتي، كل منا يبحث عن رزقه بشكلٍ أول بآخر مهما اختلفت المراكز الاجتماعية والمادية، كلنا يبحث عن الاستقرار، كلنا يرغب في سد احتياجات أولاده مهما كلفه الأمر، لم أتوقع أن يجبرني الله في آخر اليوم.

قطع شرودي صوت العم صابر ينادي:

«هيا يا شادية، لقد تأخرتِ اليوم»

حملت مشنتي الفارغة ثم ركبت السيارة وقد خف حملي وسكن عقلي وارتاح قلبي.

الحكاية الثانية

رسائل من مجهول

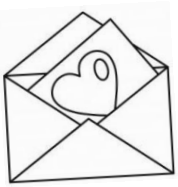

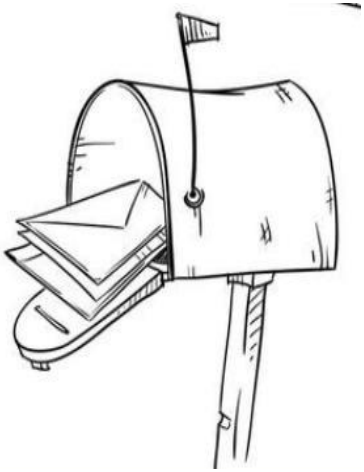

(1)

أحب بيتي ذو الشرفات طويلة الأبواب ضيقة المساحة، تكفي لاثنين لا أكثر، تبعث دفئًا في النفس رغم برودة الجو!

أنظر منها فأجد صندوق البريد الصدئ يهتز في مكانه مع هبوب الرياح فأتذكر الرسائل التي تأتيني باستمرار من مجهول لم يفصح عن هويته، لا يمل من كثرة الكتابة إليَّ رغم امتناعي عن الرد! ليس لسبب سوى أنه لا يكتب عنوانه في كل مرة، فلو كان فقط يكتب عنوانه لسنحت لي الفرصة أن أسأله من أنت؟ فربما أنت أنا! وربما تكون قريبا من قلبي ولا تدري! ربما التقيتك ذات مرة ولمعت عيناي لمرآك!

حتى أنني توجهت إلى مكتب البريد أكثر من مرة لمعرفة من الذي يراسلني فلم أصل إلى شيء!

إنها مجرد رسائل من مجهول، ورغم ذلك فهو يعرفني أكثر من نفسي، حتى توهمت أنني من أراسل نفسي ربما أصاب عقلي لوثة أو أسير أثناء نومي وأدس الخطابات في صندوق البريد لأستيقظ صباحا وأستلمها من الصندوق ذاته!

لم يُخيب ظني إلا اختلاف شكل الخط، فهذا خط منمق بعناية شديدة وأنا أكتب بطريقة شعثاء عشوائية لا أجيد كتابة الخطابات.

إنه البعيد القريب، المجهول المعلوم لقلبي فقط ويصيح عقلي من أجل معرفته، هو الذي يرسمني في جنبات خياله ثم يفضي بما جال داخله في خطاباتي ويأبي الإفصاح عن نفسه!

إلى متى ستكتفي بالكلمات العذبة التي تثلج قلبي؟! إنني أحب رسائل المجهول ولا أحبه.

أو ربما أحب قلمه ومحبرته، أو ربما أتعلق بحروفه فقط!

أنتظر رسائله باستمرار وإن غابت عني يصيبني وخز في قلبي، فرسائله دائي ودوائي.

وكيف لا أنتظر رسائلك ولم يراسلني سواك! وحدها من تحطم صمت وحدتي في هذا البيت الصغير الذي لم أستء يوما من صغره؛ لأنه يشعرني بالدفئ بعد فراق الأحبة.

وما أصعب ليالي الوحدة وما أشد وطأتها على النفس!

فارقتني أمي في الصغر حتى أنني لا أتذكر سوى جدائلها الطويلة ذات اللون الأسود الداكن، وملامحها ضبابية بالنسبة لي يشفي حنيني إليها بعض الصور، أتذكر طعم شطائرها الساخنة

وكعكتي المفضلة التي خبزتها من أجلي في عيد ميلادي السادس، أمي التي أشتاق لعناقها الطويل قبل الرحيل، أمي وليس بعد أمي شيء!

أما عن أبي الذي حاول أن يعوضني عنها، لم يدم مكوثه بجواري كثيرا، فقد استشهد في حرب 1967 في عامي التاسع عشر وانقطعت بعدها الرسائل إلا منك.

كثيرا ما أشعر بالحزن، لماذا لم يتزوج أبي بعد أمي ليمنحني هدية الأخوة والأخوات؟! لماذا لم يفكر في وحدتي من بعده!

ألهذا الحد فاض صدره بالحب والوفاء ناحية أمي!

أمي التي أخبرني عنها يوما أنه يرى في وجهي قسماتها، فكلما اشتاق إليها تأملني!

لماذا كل ما هو جميل مُفارق؟!

لماذا كلما تعلق قلبي بشيء غادر؟!

حتى الشتاء الذي أحببت رياحه الهوجاء وأصوات الرعد التي تبدد صمت الكون حولي كأنما تخبرني أن الأمطار آتية لتغسل وحدتي بقطراتها وتبدد رتابة الأيام، ملعونة الوحدة؛ تجعلك تتعلق بالموجودات ربما فقط لتعلن عن وجودك.

اشتقت لفصل الشتاء كثيرا، ليلٌ طويل يسع الندوب والخيبات، الألم والدمعات! يحوي حكاياتٍ من صمت وظلمة بها

بصيص ضي، ثم ينتهي بشعاعٍ أبيض ثم تزول عتمته بهدوء منسحبة على استحياء؛ فيأتي نهار غائم يسمح لأحزانك أن تتنفس فلست وحدك متعكر اللون، الكون ينتشي بأحزانك.

رغم رمادية الشتاء إلا أنه يعطي الفرصة لأوجاعك أن تتحرر معلنة عن وجودها، بعيدا عن صخب الصيف وسرعته التي تخطف هدوءك!

دعك من ثرثرتي الآن، أخبرني بربك، من أنت؟

فأنا وحيدة بما يكفي، صديقي الوحيد الذي ورثته عن أبي هو جهاز الراديو الذي ينقلني إلى عالم آخر.

أستمع لمستجدات الأخبار وما آلت إليه بلدنا، ثم أنتقل إلى حفل أم كلثوم وعبد الوهاب وأغمض عيني وأنا أسمع تصفيق الناس لأتخيل نفسي بين الجموع لأكسر غربتي بحرارة تصفيقهم.

دعني أحظى بفرصة مراسلتك، سأكتب حتى أفرغ ما بداخلي حتى لو لم أجد من يقرأ!

وسألقي رسائلي في صندوق بريدي لأملأ خواءه، فربما لن يتحمل الوحدة مثلي!

يا عزيزي أشكرك أنك أرشدتني لتلك الحيلة فقد ساعدتني أن أملأ وقتي بالكتابة عن نفسي التي سئمت الفراغ والوحدة وعن رسائلك، حتى تسليتي الوحيدة باحتساء القهوة في شرفتي لم تعد ترضيني بعدما ذبلت وردتي التي زرعتها بنفسي واعتنيت بها كأنها ابنتي أو ربما صديقتي!

فكثيرا ما شكوت الزمان لها وأفرغت لها رأسي التي تضج بالأفكار المملة، وما أسوأ أن تكون في الدنيا بلا صديق! لست اجتماعية بما يكفي، حتى صويحبات الدراسة كل آل إلى مآله، من تزوجت ومن أنجبت ومن هاجرت ولم يبق سواي.

هل جربت شعور أن يكون شهيقك ضيق حد الموت وزفيرك نيران متأججة! تشعر بلهيبها يكوي باطن القلب عابرًا يسري إلى صدرك حتى تفر من الأنف كأنها فرت من بركان ثائر!

هل جربت أن تنزوي بعيدا حيث لا تسمع حتى الهمس؟ ثم تملأ الدنيا بضجيج صراخك! تبكي بحرقة عاجزا عن الكلام!

لا مكان للبوح ولا صدر يتسع لك فتحكي حتى تهدأ، أنت فقط تمتص الأوجاع.

سأنتظر رسائلك حتى لو طالت المدة، فهي آخر قشة تربطني بالحياة، حتى لو كانت رسائل من مجهول.

(2)

عزيزي أسعدني كثيرا كثرة رسائلك التي أطفأت وحدتي وجعلتني ألتفت لشيء جديد في حياتي.

أما عن رسالتك الأخيرة فقد أزعجني أنك لا تحب القهوة، كيف لا تحبها وفيها نذوب بين رشفة وأخرى!

كما تعلم أنني أصحبها في شرفتي كل يوم، أَتَغَزَّل في فنجاني على ألحان أم كلثوم!

أخبرتني في خطابك أن مرارتها تجعل الأشياء تزداد سوءًا، سأخبرك بسر: مرارة القهوة تُنسيني مُرًّا أصعب، مُرًّا لا تمحيه الأيام، مهما تناسينا سنظل نتألم بصمت، نتذكر الماضي، نتمنى لو بقيَ الأحباب، لكنها مجرد ظلال عابرة تروح وتجيئ في ذاكرتي بلا رِي، سكون يغمر سكوتي، أتأمل المارة والزحام خارجًا وعلى النقيض أرى عبث الوحدة يملأ مسكني!

لذلك ألجأ لفنجاني الوردي وأملؤه بالترياق البني ذو الرائحة الذكية، لم أجرب يومًا أن يشاركني أحدهم قهوتي..

أتدري! أكثر ما زادني حيرة هو أنك تعلم من أمري ما يجعلك تكسر عزلتي تلك، لكنك عصي على الوجود، تأبى مصارحتي بكينونتك!

فتشت عن عنوانك هذه المرة حتى أبادلك رسائلي؛ لكنك مثل باقي الأشياء الجميلة لا وجود لك إلا من بضع الكلمات المنقوشة على الورق، أشم أثر الورد من بعيد في روضة محاطة بأسوار عالية.

اليوم كتبت رسالة جديدة، لكني لن أرسلها لأحد، حتى لو كنت أعلم من أنت، هذه الرسالة مزقتها فور الانتهاء من كتابتها؛ فليس كل ما يكتب يُقرأ، هناك بوح لو تنفس خارج صدرنا لقتلنا كمدًا، كتبت في بادئ هذه الرسالة "إلى أنا..".

فقط لأنني أحتاج للشعور بوجودي، الإنسان لا يشعر بوجوده إلا في حضور الأخرين، كصديق حميم، أو أخ عزيز أو حبيب وَفِي، سأُمزق رسالتي تلك، ليست كل الأسرار تليق بأن نبوح بها، أحيانا الصمت يضمد القلب رغم صعوبته.

(3)

كعادتي سأكتب رسالة لا تصلح للإرسال، فأنا المُرسِل وأنا المرسل له، اعتدت أن أكون بطلة كل حكاياتي دون شركاء!

وحدي أكتب الحكاية..

وحدي أقوم بأداء الأدوار جميعها بمهارة..

وحدي أصفق لنفسي الصماء..

يمر بي العمر لأكتشف أن الدور الذي أقوم به لا يتم عرضه إلا على شاشتي فقط!

لست مرئية، ولا مسموعة، ولا يشعر بوجودي الجمهور!

أتعلم يا صاحب الرسائل المجهولة، أنا أتعمد الضحك بصوت عالي ليرنّ صدى صوتي في المكان فيشعرني بوجود آخرين؛ حتى لو كانوا نسخة مني!

دعك من هذياني، فأنا أصارع الوحدة بكأس من ماء لا يُسكر ولا يروي ظمئي.

أخبرني بربك، لماذا انسحبت من عالمي فجأة؟!

كل يوم أنتظر رسائلك بلا جدوى.

هل سئمت مراسلتي؟ أم سئمت صمتي! أنسيت أنك من تحرك اللعبة بخيوطك؟ لكني بلا سبب ألتمس لك مئة عذر لغيابك.

ما أخشاه أن يكون غيابك لمكروه أصابك فيتأذى قلبي مرتين.

وددت أن أحكي لك أن اليوم لأول مرة منذ زمن طويل يدق بابي، هرعت إليه بفرحة لأرى من حطم صمت داري؟

فتحت الباب فإذا بها جارة لي ليس بيننا سابق حديث.

استقبلتها بفرحة لم تبادلني إياها!

جلست وبلا مقدمات بكت، لم أحاول تهدئتها، لطالما راودني شعور بأن أبكي بجوار أي شخص لا يعرفني حتى أفرغ أسى قلبي، الغرباء دائما أصدق من يحتمل البوح دون شفقة أو غاية!

تركتها حتى سكنت شهقات بكائها وهدأت، وكأني غير موجودة أمامها بدأت في سرد حكايتها مع زوجها رفيق دربها حتى انتهت عند أخر كلمة وابتسمت! لم أتفوه بالكثير لكني حاولت أن أُطَيِّب ألامها، أواسيها ببضع كلمات حتى يبرأ جرحها، ثم انصرفت مبتسمة كأن شيئًا لم يكن!

ظللت أتساءل، لم عليها احتمال كل هذه الجراح من مُحب؟!

هل من اتخذ من طريق الحب سبيلا يملؤ هذا السبيل بالعثرات؟

كأنه أخذ صك أمان؛ أنه لا فراق ولا عودة بعد منتصف الطريق، عليك أن تتحمل الألم مهما بلغ مبلغه، لأنك تحب!

كل ما كان يؤلمها أنها لم تعد موجودة، فقدت الثقة بنفسها وانطفأت روحها، أكل الذبول من روحها فخارت قواها.

العجيب أنها اختارت أكثر من يشعر بمعاناتها ليواسيها، لكنها الأصعب، أن تموت في قلوب الأخرين، أن تنظر في مرآتك فلا تجدك! أن تمشي بين الناس فلا تجد ظلك!

صرت إنسان باهت الصوت والصورة، لوحة بلا ألوان، كل ما كان جميلًا داخلك يوما أصبح لا يُرى، أن تصبح مُعتاد، لأنك موجود دائمًا أو على الأحرى لأن بقاءك مضمون.

أشفقت عليها، لا أتصور مدى انطفاء بريقها في عين حبيبها!

سمعت كثيرًا عن الخذلان، لكن الأشد وطأة أن يأتي الخذلان من الجهة التي ظننت يوما أنها مَأمَنك! تلك هي الخيبة الكبرى.

العجيب في الأمر أنك قطعت عني رسائلك في الوقت الذي تعلمت فيه درس، أن المتاح دائما باهت الصورة!

(4)

انزويت وحدي في أحد أركان غرفتي؛ لأقرأ رسالتك على مهل، وكأن البيت يضج بالناس رغم خوائه!

تظاهرت بالفرار ممن حولي، ابتسمت ابتسامة خجل، وطويت خطابك بين أصابعي كي لا يلاحظه أحد.

كثيرا ما أتظاهر بأن حولي أبي وأمي وأخوة وأخوات، أتخيل أختي تجري خلفي لتنتشل مني رسالتك الأخيرة لتقرأها بفضول، يا له من إحساس رائع؛ أن تشعر بالوَنَس.

فتحت رسالتك المفعمة بعطر أنيق عالق حتى الآن في أنفي، لعله يفضح وجودك حولي يوما، أما عن الأجمل هو إحساسك بما يدور داخلي.

نعم، أتمنى أن تجود عليَّ بعنوانك لأمارس حقي في سكب كلماتي وعطري على خطاب تختص بقراءته وحدك، فقد اعتبرتك صديقي وسأعيرك أسراري وهفواتي.

سرني أنك حاولت أن تحتسي القهوة مثلي في شرفتك رغم فشلك في التلذذ بمرارتها إلا أنه يكفي أنك حاولت.

سرني أنك تشرب الشاي في شرفتك وتراني من بعيد، في المرات القادمة سأفتش عنك حولي، وسأسأل المارة الغادي والرائح عن نسمات عطرك من أي جهة تفوح.

يا صاحب الرسائل المجهولة، أخبرني بربك كيف تتحمل مراسلتي دون أن أبادلك الكلمات والسطور!

إنني أرقب منك خطابا منذ شهر أو أكثر ولم يزدني انتظاري إلا وحدة وبؤس.

أتعلق بقشة حروفك وأخشى أن تحرمني من فيض مراسلتك فتنقسم روحي.

تساءلت كثيرا، ماذا حبسك عني؟ لماذا تقرر فجأة قطع الوصل ثم تجود على روحي ببضع حروف؟ أو ربما قطعته من البداية منذ أن أخفيت هويتك عني!

(5)

اليوم استأنست بقراءة رسالتك الماضية في شرفتي، تلذذت برائحة فنجان قهوتي المعتاد وحينما فرغت منه استوقفني رائحة العطر الذي فاح في الهواء على حين غفلة، لم تكن هلاوس ولم يُخيل لي أنك موجود بالقرب مني إلى هذه الدرجة، ليست مجرد رائحة الخطاب فحسب! تأملت الشرفات المجاورة، هذه جارتي ولا

يسكن معها سوى زوجها وأطفالها، والطابق السفلي جارتنا العجوز ولا تُمكنها صحتها من التردد على شرفتها إلا نادرًا، أما الطابق العلوي فهو لصديق والدي الذي هاجر إلى بلد أخرى هو وأولاده منذ كنت في عامي الثالث عشر!

إذن، من أين فاحت رائحة عطرك؟!

على قدر ما سرني أن عطرك يفوح حولي بالقدر الذي يشعرني بدفئ وجودك إلا أنه أصابني بالحيرة وصرت أبحث عنك حتى في المارة بالشارع.

فإن رائحة عطرك أصابت موقعها في أنفي واستشعرت ربيعها في قلبي! شعور أنك الآن قريب مني إلى الحد الذي يجعل كلانا نتنفس نفس الهواء!

كلانا موجود بنفس المكان ولو لم أرك فذاك وحده كفيل بأن يبث الأمان داخلي! كلانا ينبض قلبه ولو فر كل منا من اللقاء!

أي أنس يضاهي وجودك حولي جمالاً!

أعدك يا صاحب الرسائل المجهولة أنك ستقع في براثن عيني قريبا، ماذا لو كنت الآن تراني وأنا أتشبث برسائلك كأنها طوق النجاة؟ لابد وأنك فهمت الآن أن رائحة عطرك لم تفارق يدي منذ أن لامست رسائلك بأناملي.

(6)

اليوم سمعت خطوات أمام بابي ثم توقفت، طٌرق الباب طرقتين فهممت لفتحه، فإذا برائحة عطرك تفوح حولي حتى ظننت أنني أهذي، اليوم استلمت رسالتك من أمام بابي مباشرة دون أن أستلمها من صندوق البريد، تأملت الدرج أسفل شقتي، فلا أثر لتارك الرسالة، نظرت لأعلى واستبعدت أن يكون صاحب الرسالة صعد لأعلى لأن البناية خالية من السكان من فوقي.

احترت من أمرك كثيرا، ما معني أن تترك الرسالة أمام بابي مباشرةً!

لماذا تخفي عني عنوانك، هل أنت قريب بالحد الذي يجعلك تخفي عني مكانك؟!

أما عن فحوى الرسالة فاكتفيت اليوم بكتابة بضع كلمات لم تسد نهمي لحروفك، فأطفأت الأمل داخلي وأظلمت ضوء النهار في عيني.

كم سرني أنك تعلم مدى احتياجي لمراسلتك، البوح يا سيدي يقتل اليأس ويطلق سراح القلق الحبيس داخل القلب.

لكني تعودت على الكتمان، فكلما نازعتني أفكاري نحو بوحٍ عميق، جذبتني نفسي إلى صمتٍ أنيق.

هكذا أنا، أهتدي الطريق وحدي مهما كان داخلي معتم!

سأترك رسالتي في صندوق الرسائل الخاص ببنايتي كما طلبت ويسعدني أنني أخيرا سألقي بكلماتي في جُعبتك لتمر على لسانك وتنفذ إلى قلبك.

أشكرك كثيرا يا صديقي أنك موجود وأنك ستسمعني وتتحمل وحدتي المتجسدة في كل تصرفاتي، أنا امرأة خاوية لا أتبع إلا خيالي، ليس لدي من أشاوره في أمري، قلبي يئن من الفراغ، يكاد صدى صوت العابرين حولي يتردد في قلبي.

أتمنى لو تخبرني باسمك، اليوم اكتفيت بتوقيع الرسالة بـ/ إلى صاحب رسائلي من المجهول.

(٧)

إليكِ وحدِك، وليس قبلك من حركت الحرف الراكد في قلبي، لا أعلم لماذا أنتِ تحديدًا دون الأخريات، ربما لأنكِ تشبهيني كثيرا؛ وحدتك تشبه عُزلتي، الفارق الوحيد بيننا أنكِ لم تختاري أن تكوني وحيدة بينما أنا انعزلت عن العالم بكامل إرادتي، ففي العزلة أرى نفسي بعيدا عن عبث البشر.

أنا لا أريد حولي جمهور كبير يصفق، فقط أريد من يفهمني، يتقبلني على عيوبي ويعذرني، تمنحني العزلة قدرًا من الأريحية لكنها تزيد من كآبتي.

لم أقصد يا عزيزتي أن أكون مجهول، الناس يخسرون بعضهم البعض حين يقتربون، لربما بدوت لكِ في رسائلي كفارس الأحلام، بالطبع ألصقتِ صورة ملائكية عني في مُخيلتك، وبالتأكيد لوعرفتِيني ستقارنين بين تلك الصورة وبيني فأخسر كثيرا.

لذلك آثرت الابتعاد، أكتفي بأن تري مني الجانب المنير في حياتي ولأخفي عنكِ صمتي الدؤوب الذي لا يمل مني، فقد سئمت صوتي الذي يتردد داخلي دون أن تهتز له شفتاي بحرف.

أشكرك على رسالتك التي وصلتني أمس، والقليل منكِ كثير لو تعلمين، أخشى أن تنقطع رسائلك يوما، فقد جاءتني كعناق أم لطفل خائف، كوطن صغير راق لي سكناه.

رأيتكِ اليوم في شرفتك تتلفتين حولك كثيرا كأنما تبحثين عني وأضناكِ البحث، لا ترهقين نفسك يا صغيرتي فأنا مجهول، مجهول عنكِ، وعن العالم، وعن نفسي.

أصبحتِ تطيلين الجلوس في الشرفة والبرد قارس، لا تفعلي مثلي فأنا شخص أتدفأ على نيران قلبي التي لا تكف عن الاحتراق.

(٨)

إلى صاحب الرسائل المجهولة، شكرا لك أنك ملأت حيزًا كبير في حياتي على القدر الذي أخافني منك، ماذا أفعل لو انقطعت رسائلك؟

ربما أشعر بوحدة أشد وطأة من التي كنت أعيشها قبل رسائلك فشعور أن أحدهم يراك، يتابعك، يهتم لأمرك، محبب إلى قلب أي إنسان على وجه البسيطة، لا يشعر الإنسان بوجوده وقيمته إلا بوجود آخرين يشعرونه بذلك.

كنت أظن أني سأهدأ حينما أبادلك الرسائل لكن الحقيقة أصعب مما تصورت؛ لقد تعلقت بكل حرف أرسلته لي للدرجة التي جعلتني أقرأ كل رسائلك في اليوم الذي تنقطع عني فيه حتى أعوض غيابك.

حتى عطرك لم يسلم من تعلقي به، يقولون أن لكل إنسان رائحة خاصة به إذا امتزجت بعطره حولته لعطر آخر.. صرت أتنفس رائحة الخطابات حتى أشعر بالطمأنينة لمجرد تخيلي أن يدك لامست تلك الورقة.

الأمر أصبح مخيف، فقلبي يجد فيك ما يؤلمه وما يداويه، ولا أعلم لما كل هذا الإصرار على إخفاء وجودك رغم أنك قريب مني!

المريب أنني صرت أشم عطرك في أسوار الدرج وفي شرفتي كثيرا، ألهذا الحد أنت قريب!

أرجوك كف عن التلاعب بي وأخبرني من أنت بربك..

فقد رأتك عيني في القمر المكتمل أمس، وكأنه ينظر لي ولك ويتابع كلانا، تحمست لفكرة أنك تراه مثلي، تتأمل اكتماله ونوره وتوهجه، بينما تأملت أنا صمته وابتعاده كأنه يراني ولا أراه!

يا صاح أخبرتني أنك تحب الصمت ولا يحبك، أتفق معك في حبك له لكن لماذا لا يحبك!

ففي الصمت نسمع صوت وجودنا داخل أنفسنا، ولا تتقن روحي سواه، رغم أن عقلي لا يكف عن الحديث.

(٩)

عزيزي صاحب الرسائل المجهولة، قرأت كل رسائلك التي أرسلتها الفترة الماضية لكني عاجزة عن الرد، أمر بحالة يأس وتعاسة شديدة.

لا أخفيك سرا، خارت قواي وسقطت أقنعتي التي لطالما أخفيت خلفها وجهي العبوس، ما أصعب أن تسعى لتثبت للحياة أنك ستتخطى عثراتك، آلامك، وحدتك فتسقط في هوة عميقة من الخوف.

الخوف من أن تبقى وحدك حتى النهاية!

الخوف من أن تصاب بلوثة عقل من كثرة تبادل الحديث مع نفسك بصوت عالٍ!

الخوف من فقدان إحساسك بالواقع ليس لتخليك عن الحياة والمشاركة فيها بل لأنه لا يوجد حياة بلا رفقاء!

الخوف أن تقع فريسة لأفكارك التي تتجسد أمامك لأسواط تشق القلب حزنا وألما!

إني أهرب من الوحدة بالاستغراق في استعادة ذكرياتي مع الأحبة؛ فأزداد ألمًا وبكاءً، بكيت حدًّ لم يعد في عيني مُتسع للدموع ولا في قلبي قيد أنملة للحنين، ثمة وجع يرقد هنا في أعماق قلبي.

أمس وصلني خطابك مرفق بباقة من زهور القرنفل الأقرب إلى قلبي، فقد ورثت حبي لها من أبي ولم أستطع زراعتها في شرفتي منذ أن فارقني، حاولت كثيرا وكان الفشل حليفي، كلما اعتنيت بها

ذبلـت وماتـت، كأنهـا تـأبى العـيش وقـد غـادر أحباؤهـا، الزهـور لا تستطيع العيش منفردة!

ربما كانت مصادفة أن ترسل لي باقة من أقرب الزهور إلى قلبي وربما لم تكن مصادفة!

ربما أخبرتك بذلك الأمر يوما ما، هذا ما يعني أنه ربما تحاورنا من قبل!

كم كنت سعيدة وأنا ألتقط الباقة من أمام بابي الذي صدأت مفصلاته من قلة الزائرين أو على الأرجح انعدامهم.

ما أصعب أن تكون بلا أهل!

كالضائع في بلدٍ مظلم حالك السواد لا تهتدي الطريق ولا تعلم أين وجهتك.

لاحـت لي باقـة الزهـور بحنـين إلى المـاضي، وربمـا انتزعتـني مـن حالة البؤس التي قيدت بسمتي.

اليـوم لاحظـت أن الشرفة في الطـابق العلـوي يـنعكس منهـا الضوء، يبدو أن أحد أبناء العم فاروق قد عاد من الخارج، ربما يكون تمـيم صـديق الطفولـة الـذي علمـني لغـة الصـم والـبكم ورغـم صـغر سني وصمته الدائم إلا أني كنت أفهمه دون الحاجة لأن يحرك يديه،

كانت طفولتي مرتبطة به حتى هاجر والده إلى الخارج واصطحبهم معه وكأنها كنت بداية رحلتي مع الوحدة.

الأحباء يتسللون خارج دائرة حياتك الواحد تلو الآخر.

(10)

عزيزي صاحب الرسائل المجهولة، اعتذر لك عن قلة رسائلي؛ فقد شغلني حضور صديق قديم، صديق العائلة ورفيق الصغر تميم، جاري الذي يسكن في الطابق العلوي، ربما تراه في الشرفة يرسم لوحاته، كلما أراد التعبير عما يحيك بصدره عبر عنه بلوحة فنية لا تستطيع تجاوزها إلا وألقت داخلك ما أراد التعبير عنه، فقد اعتاد على تلك الطريقة في البوح منذ الصغر، ما أصعب أن تحتاج للكلام، البوح، إخراج الثقل القابع على قلبك فلا تستطيع!

حُرِم النطق صغيرًا لكنك تعشق هدوءه وإشارات يده التي يعبر بها عما يقول، يعيش بعيدًا عن ضجيج الناس، فلا تسأم صحبته أبدا.

تعرفت عليه حينما جاء بي والدي لنسكن في الطابق السفلي لصديقه الذي يملك ثلاثة أبناء، أوسطهم تميم.

تميم صديق وفي عاد من الخارج منذ وقت قريب، كسر كل قواعد البعد وعاد ليسترد ذكريات الماضي من قلبي، قصصت عليه

صراعات الوحدة التي لاحقتني، شعور الاغتراب حتى في بيتي! الجميع يرحلون والمخلصون في الود قلة!

أن تشتهي البوح دون أن تجد من يصغي، من يخبرك أن كل شيء سيكون على ما يرام.

وحده الخوف يلاحقك، الخوف من أن تدوم غربتك!

كان تميم يصف لي شعوره كأنه يحكي ما في قلبي، كأنه راوي قصتي وأحد أبطال حكايتي في الوقت ذاته!

حينما أصر أبواه على الهجرة فكان فراقنا أمر حتمي لا فرار منه.

لا أعلم، لمَ يخشَ المرء فراق الأحبة! هل لأنه سيتذوق شعور الحرمان منهم أم خوفا من الوقوع في براثن الوحدة!

اليوم أخبرني تميم أنه لن يرحل أبدا، أخبرني أنه سيبقى هنا ما دام يتنفس.

(11)

إلى صديقي الوفي، الحاضر الغائب، المجهول رغم معرفته الجيدة بي، ماذا أحب؟ ماذا أكره؟ ما يزعجني؟

وما يجعلني أرقص فرحا؟

رغم وجوده في حياتي كالسراب البعيد، كلما اقتربت منه ابتعد، وكلما ظننت أني بجواره هرب.

اليوم أسوق لك بعض الأخبار القاسية على قلبي، لربما تخفف عني ببعض الحروف التي تعبر روحي كترياق يخلصني من سموم البشر.

جاءني اليوم خطاب من أبناء عم والدي، ستندهش كما اندهشت أنا في بادئ الأمر!

نعم، هناك بعض الأقارب لا يظهرون إلا لنيل غرض ما، المصالح دائما تجعل الغائب يعود، اليوم ظهر أبناء عمومتي ليقاسموني إرث شقتي تلك!

المأوى الصغير والوحيد الذي أشتم فيه رائحة الأمان، الذكريات التي أعيش على حُطامها كي لا أُجن من فرط الوحدة.

هكذا البعض لا يظهرون إلا لحاجتهم فقط، بكيت كثيرا من هول الصدمة، ماذا سأفعل وكيف سأواجه مصيري وحدي بلا دروع تقيني شرور العالم.

أصابوني بسهم ولو كان في مقتل لأراحوني واسترحت، لكنهم اكتفوا بجرح عميق سيجعلني أنزف على أثره باقي العمر.

لا مفر من بيع الشقة لينال كل ذي حق حقه غير عابئ بما سيحل بي.

ربما لو دفنوني على عتبة تلك الدار لشعرت بالاطمئنان أكثر من تركي أحيا بدونها في الخارج.

أكثر ما يؤلمني أني استأنست بنظراتك التي لم أرها يوما، لكنها كانت كفيلة بأن تشعرني بالأمان.

هرولت نحو جارتي التي أخبرتك عنها يوما، فتحت لي بابها فجلست وبكيت، وكأنما أسترِد جرعة التنفيس التي سمحت لها بها يوما.

بكيت كأنما فارقت أبويَّ الآن وبكت لبكائي، قصصت عليها ما حدث وكأنها صديقة قديمة أسترق البوح في كنفها، عانقتني وربتت على كتفي، هونت عليّ مصابي ببعض الحلول كشراء شقة صغيرة بنصيبي من الإرث أو استئجار شقة في نفس الحي والعيش فيها.

استراح قلبي قليلا رغم الغصة التي سكنت حلقي لمجرد فكرة أني سأهجر بيتي ليسكنه غريب!

كعصفور الزينة الذي تربي في عش ثم تطلق سراحه داخل زنزانة أكبر، ظلامها قاتم، لم يعتادها من قبل!

بالتأكيد سيتخبط في ظلمتها مصطدمًا في جدرانها الصماء، سيشعر بالغربة، الخوف، والضياع.

كانت جارتي لطيفة ودودة انتشلتني من حزني بابتسامتها الهادئة محاولة طمأنتي، لاحظت لمعة عينيها بالدموع الحبيسة من آن لآخر وكأنها تحاول إخفاء حزنًا أكبر.

فسألتها:

«أخبريني، لماذا لا تطلقين سراح دموعك الحبيسة لتستريحي؟»

فقالت:

_لأني لو تركتها سأبكي مرتين، المرة الأولى بسبب الألم النفسي الذي يُكبِّل قلبي.

وأما الثانية، فستكون لأني رأيت نفسي مكسورة، باكية، مهزومة.

هكذا هو الخذلان، يؤلم مرتين!

سألتها: وما يبكيكِ؟

فقالت:

«منذ فترة زُرت طبيب العيون، لأخبره أني كلما نظرت في المرآة وجدت صورتي مهزوزة، ظننت أن عطب ما أصاب عيني، لكن العطب كان في عقلي، لأنه جعلني أراني امرأة عجوز كلما تأملت عينيها تهرب نظراتها لتصبح خواء، أحاول البكاء فلا أستطيع، ما زال داخلي ثمة قوة تعافر حتى لا أرى الضعف في نفسي».

سألتها:

«وما الذي يجعلك ترين صورتك هكذا؟»

فقالت:

«لا أدري، ربما لأني لم أعد أرى لمعة انعكاس صورتي في عين زوجي! أو بالأحرى لم يعد يراني!

إنه لشيء مُخزي أن تظن أنك جميل في عين أحدهم ثم تكتشف أنك لم تتجاوز حدود الظن!».

صمتت لبرهة سالت فيها دموعي فمسحتها خِلسة ثم قلت بنبرة أعلى قليلا:

«أتعلمين من هي أضعف النساء؟ هي من جعلت من حبيبها مرآة تقيس نفسها من خلال عينيه، ربما هو أعمى ولا يرى فتضيع صورتك داخل مقلتا عينيه الصماء، وربما عينيه ترى الكثيرات فتاهت صورتكِ بين صورهن! المرأة القوية هي التي ترى جمالها الداخلي دون النظر في مرآة، التي لا تهز صورتها نظرة عابرة أو كلمات المديح أو الذم!

ضعفك وقوتك يكمنان داخلك، إما أن تطلقي سراح قوتك أو يطغى على جمالك ضعفك، أنتِ لستِ مجرد صورة تحركها الأعين كيف تشاء».

انحنت بظهرها للأمام مشبكة أصابعها باستسلام وقالت بانكسار:

«ماذا أفعل لو كنت اكتشفت جمالي بعينيه فقط؟»

قلت بنبرة تحدي:

«ربما تحتاجين إعادة بناء ثقتك بنفسك بالتخلي، التخلي عن احتياجك له، التخلي عن اكتساب القوة من خلاله، أو بالأحرى التخلي عن كل شخص جعلكِ ترين القبح في نفسك ولو قليلًا»

لا أعلم هل جئتها بنفسي أم ساقني القدر إليها، بدونا كقطع زجاج متناثرة، لم يستطع كلانا إصلاح روحه المهشمة، لكننا اكتفينا بنبتة صداقة ستنمو مع الوقت، أتدري؟ كان لي صديقة قريبة من قلبي لكنها أضاعتني رغم أنني حاولت التشبث بها حتى لا تلقينا الأيام في طي النسيان، أنا أتمسك جيدا بالأشخاص حتى يُفلتوني، لا أهمّ بالرحيل قبلما أتأكد أنني لم أعد في مكاني المفضل داخل قلوبهم، لم تعد منزلتي ذات قيمة لديهم، أبحث عن أي ثغرة في قلوبهم آوي إليها فيغلقونها، فأرحل في صمت بقلبٍ محطم متعلق ببقايا الذكرى.

أنا لم أتغير، لكني أتعلم، أتعلم بالخذلان ونكران الوعود.

بعدما غابت صديقتي تلك تعلمت أن بعض التقصير لا يخضع للعتاب، بعض الكلمات تفقد معناها إذا نُطقت! بعض التسامح قلة حيلة، بعض الصمت يصرخ ألمًا، التكرار لا يُفيد ما دمت لم تفهم الدرس، وحدها الأيام ستلُقنك ما عجز اللسان عن قوله.

لكن رغما عني يسري في قلبي شعور بالألفة تجاه جارتي ربما نصبح أصدقاء.

أطلت عليك يا صديقي لكني أحتاج لمتسع من الوقت أخرج كل ما يحزنني، فقد فاق الأسى الحد، أصابت أوجاعها روحي وجعلتني أنسى ما حاك بقلبي!

(12)

عزيزي صاحب الرسائل المجهولة، انقطعت رسائلك الفترة الماضية وكأن كل أُنس الحياة قرر الرحيل فجأة!

لماذا آثرت الصمت ولم تُعَقب على ما آل إليه أمري بعد عرض شقتي للبيع!

أتدري!

شُرفتي لم تعد المكان المحبب لقلبي كما كانت! فقد أصر الورثة على وضع لافتة للبيع أسفل الشرفة مما زاد قلبي انقباض، تمنيت لو لم يعلم الناس بالأمر حتى يتأخر موعد البيع.

لم أرتب أموري بعد، أين سأسكن؟ كيف سأترك داري الذي تربيت فيها؟ كيف سأودع ذكرياتي المحفورة في كل ركن فيه؟

ساعدتني جارتي في إيجاد شقة قريبة بمبلغ يسير لكني لن أستطيع ترك بيتي مهما حدث، كيف سينسلخ قلبي من جدرانه!

كيف سأعتاد المكان الجديد!

لربما خرجت روحي عند بابه، أنا في ضيق شديد ولم يعد داخل روحي متسع للصمود والمواجهة.

هل جربت شعور أن يكون شهيقك ضيق حد الموت وزفيرك نيران متأججة!

تشعر بلهيبها يسري من باطن القلب عابرا صدرك حتى تفر من الأنف كأنها فرت من بركان ثائر!

هل جربت أن تنزوي بعيدا حيث لا تسمع حتى الهمس ثم تملؤ الدنيا بضجيج صراخك!

أن تبكي بحرقة عاجزا عن الكلام! لا مكان للبوح ولا صدر يتسع لك فتحكي حتى تهدأ، شهقات بكائك داخلك تؤلمك تنزف دمعات حارقة فتصمت.

(13)

عزيزي **(م)**

سرني كثيرا أنك راسلتني أخيرا وكتبت حرفًا من اسمك كما أخبرتني في رسالتك الأخيرة، سعدت بهديتك الرقيقة المرفقة مع الرسالة، لن أسألك هذه المرة كيف عرفت أنني أميل لاقتناء الدفاتر الصغيرة ذات اللون البنفسجي؛ لقد تأكدت أنك تعرفني جيدا كمعرفتي لنفسي.

لقد كانت مفاجأة بالنسبة لي وخاصة بعدما رأيت توقيعك داخلها.

إهداء إلى رنين

صديقك (م)

أتعلم أن اللون البنفسجي يربطني دائما بالأحداث السعيدة، أول فستان اشترته أمي لي في عمر الخمس سنوات كان باللون البنفسجي، وهكذا كان لون درع التفوق الخاص بتخرجي، ولون غرفتي وأشياء كثيرة.

سأحاول طلاء شقتي الجديدة بذات اللون، لربما هدأت روحي المعذبة المعلقة في جدران شقة والدي كلوحة بالية لو حملتها تفتتت بين أصابعك.

كلما بحثت عن شقة جديدة أنظر إلى شرفتها أولا، لا أدري ما الذي يستهويني في شرفات ونوافذ المنازل!

كأنها مُتنفس الأرواح الساكنة بالداخل، لو كانت الكلمات فراشات طائرة لازدحمت كل يوم مئات الكلمات الفارة من النافذة!

وربما انتظر البعض فراشات عائدة من الخارج كلمحة أمل تسقي بها من بالداخل ليثمر بالحياة!

لربما كانت نسمة تائهة عبرت لتنقذ روح ضاق بها البراح!

على الأغلب النوافذ رئة البيوت ونبض لجدران صامتة تتمنى لو تتكلم.

اليوم تواصل معي صديقك المحامي، كانت مزحة لطيفة حينما أخبرني أنه من طرف أستاذ (م).

طمأنني بشأن تقسيم الإرث وإجراءات بيع الشقة لكنه أصر على عدم تعجلي في استئجار شقة جديدة الآن.

جميل أن تشعر أنك لست وحدك، هناك من يدعمك، يسندك، يقوي عضدك، لذلك شكرا لك يا صديقي على وجودك حولي حتى لو لم تكن قريب!

اليوم شعرت بغصة في حلقي حينما أخبرني حارس العقار أن جاري تميم يفكر في شراء الشقة حتى ينقل مكتبه هنا ويكون مقر شركته الهندسية أسفل شقته، كنت أود لو طالت المدة قليلا حتى أرتوي من ذكرياتي المحفورة بكل ركن فيها.

لكنه الخير على كل حال، لربما يتغير حالي بعد تغيير المكان ومن ثم الخروج من عزلتي.

أفكر جديا الآن في العمل بشركة تميم حتى لا أبتعد عن هنا ومن أجل تحسين العائد المادي لي.

أنا متخبطة بشدة، ماذا لو حكيت سرك لبضعة حروف فتشابكت لتكون كلمات؛ فبكت!

ماذا لو أرغمت نفسك على البكاء لتستريح وتهدأ فتحجرت الدموع في مقلتا عينيك ورفضت النزول!

كيف يفعلها تميم ويطلب شراء شقتي وهو يعلم جيدا أن الأمر شاق عليّ، لربما غيرته الغربة!

لكن كيف يتغير عليَّ! الغريب في الأمر أنه كان خير صديق منذ الصغر، كنت الوحيدة التي تفهم صمته وسكونه، لم يحتاج ولو لمرة استخدام لغة الإشارة ليشرح لي ما يريد قوله، كان يكتفي بإيماءته التي كانت تجعلني سعيدة لمجرد إحساسي به.

أشار يوما ما إلى أمه وابتسم ثم ضم إصبعيه مشيرا إليَّ، فهمت أنه يقصد أنني أشبه أمه.

تميم عاد من جديد ليحرك داخلي الحنين إلى أيام الصبا، عاد ليشعرني بالتخبط بعدما تناسيت غيابه.

(14)

عزيزي (م)

انطفأت روحي كلما هممت بجمع أغراضي، أنا كالسمكة وتلك الدار هي مائي ومأواي، إن أخرجوني منها زهقت روحي.

لا أحد سيشعر بانكساري، ضحكاتي وهمساتي وطفولتي وشبابي وذكرياتي محفورة هنا. حين تسمع صدى صوت انكسار روحك؛ فاعلم أن الألم عظيم وأن الصوت صرخات متتالية تستغيث تود الصياح لكنك في كل مرة تكتمها بصمتك.

يمر الأمر بسلام عادةً، لكن احذر أن يتوالى الألم فيكبرالصدع وتتحول روحك إلى بقايا مبعثرة في كل اتجاه ولا تستطيع لملمتها! تعيش دون حياة!

وهناك فارق بين أن تعيش وأن تحيا!

الصمت يحرقك وجارحك لن يبالي، لأنه لا يعلم بمدى ألمك.

أنت تتلذذ بكبريائك وعزة نفسك التي تجلدك بسياط من نار!

لا أحد يحيا بلا ماضي، بلا ذكريات ملموسة، كغرفة أمي وأبي التي أنام فيها وكأني أعانقهم، كمكتبة أبي التي حفظت معظم كتبها لأنني أتدفأ بالكلمات والحروف لمجرد أن لسان أبي رددها ذات يوم.

كوردة أهداها لي تميم يوما فاحتفظت بها في كتاب حتى ذبلت وماتت وجفت أوراقها.

ربما ذبلت لأنه غادر وتركها بمفردها! أم لأنه قطفها من الأساس! ربما لو لم يقطفها لنمت وترعرعت.

كم هو مؤلم الحنث بالوعود والخذلان من شخص كان مأمنك!

لطالما ناديته دون إجابة منه حتى بحَّ صوتي وأصبح همسًا فاترًا!

الغريب أن أفكاري تلاحقه تصرخ لاهثة باسمه حتى صم الصراخ أذني، كم هو قاسٍ بُعد المسافات!

ملعونة تهدم لحظات الأنس، تضيع بين طياتها قصص حب ولدت ووئدت في حينها!

أن تعيش على أمل أن تأتي لك الأيام بخبر مع الريح، لكن الريح تغدو وتجيئ بلا مرسال.

أوقدت شمعة الصبر لتُنير عتمة الانتظار، طال الغياب وضاع معه الكثير من الذكريات التي كان من الممكن أن نصنعها معًا، لم نجرِ تحت المطر، لم نضحك على أشياء تافهة، لم نفعل الكثير بفعل الفراق.

اليوم عاد تميم بجرح أعمق، كيف يلوذ بالعيش في داري على رفات أيامي المنسية هنا!

كيف وهو أشدهم علما بمدى تعلقي بداري!

رغم كل ذلك لم أحنق منه لحظة، مازال في قلبي بقايا صدئة من الماضي لا يجليها الزمن وطول الوقت.

لقد أعياني الفقد والوحدة، غدا سنوقع العقد ويأخذ كل ذي حق حقه.

غدا ستكون داري داره ولن يكون لي حق الجلوس في شرفتها أو شم رائحة أحبابي فيها.

(15)

لا أعلم لماذا كلما تعلقت بأحدهم فارق، كباقي الأشياء الجميلة، ترحل دون وداع، كالربيع ونسماته الهادئة حين يجمع ألوانه المبهجة وروائحه العطرة ويهم بالرحيل.

حلاوة البدايات التي تستهل أي علاقة، إما أن يكون مصيرها الوداع أو تدوم بحالة من الفتور الذي يجعل الحياة على وتيرتها بنفس كل الأشياء التي اعتدناها معا لكن باهتة بلا طعم.

المكان الذي يتلاقى فيه الأحباب أول مرة يبقى كما هو لكن عذوبة اللقاء تنتهي، الأغنية التي لطالما رددها المحبين كما هي لكنها لم تحرك في المشاعر ساكن.

الفتور يقضي على المشاعر الدافئة، فلم تعد كما كانت من قبل، دمرها الاعتياد.

دعك من ثرثرتي الفارغة، وددت أن أخبرك أنني اليوم انتهيت من توقيع عقد بيع شقتي ووزع المحامي حقوق أبناء عمومتي في الإرث ثم بقيت وحدي بين الحقائب والأثاث الذي جمعته لينتقل إلى مكان جديد بلا ذكريات، بلا دفء، بلا أحباب.

اختفى تميم بعد توقيع العقد مباشرة، وأنا على نفس جلستي، أنتظر الحكم بالإعدام بخروجي من داري كأنما تقتلع شجرة

زيتون من أرض فلسطين ثم تزرعها في القطب الشمالي وتطلب منها التأقلم مهما كلفها الأمر.

أغرقني التفكير حتى وصلتني رسالتك، كانت كافية لتجيب على تساؤلاتي.

ما الحكمة من هذا الابتلاء؟

ماذا سأفعل في أيامي القادمة وأنا في العراء وحدي؟

وكأنك قرأت أفكاري وشرعت في ترتيبها، ربما تكون محقا أن الله أراد إخراجي من عزلتي لأرى العالم الخارجي وأتفاعل معه لكن الأمر مؤلم، يشبه كثيرا -بالنسبة لي- أول لحظة بعد الميلاد حين تبدأ في الاعتماد على رئتيك في استنشاق الأكسجين، تشعر بالاختناق وكأنك تغرق.

ليس من السهل أن أحيا بلا داري، ربما سيخفف عني المرور أمامها كثيرا ليشفي ولو جزء من آلامي فأبرأ منه.

أوافقك الرأي في البحث عن عمل يملؤ وقتي ويسد احتياجاتي، أعدك أنني سأشرع في البحث عن عمل مناسب فور تسليمي الشقة لتميم..

أشكرك يا صديقي أنك لم تتأخر عليَّ في الرد، وصلني اهتمامك، شكرا لك أنك موجود حولي.

(16)

صديقي الوفي **(م)**

أشعر بحالة من الارتباك والتخبط، لقد اختفى جاري تميم مرة أخرى، غادر بلا وداع كعادته! لكن الأمر مختلف اليوم؛ فقد ترك رسالة يخبرني فيها أنه لا داعي لترك الشقة الآن لأنه سيؤجل نقل مقر شركته لما بعد تخليص بعض الأوراق وذلك سيحتاج وقتا طويلا لكني أشعر أنني أجلس في مكان ليس من حقي الانتفاع به رغم كونه مني وأنا منه، غادر تميم ولم يعطني حتى فرصة دفع مبلغ كإيجار للمكان.

المحبط أن تُخذل مرتين! المرة الأولى تعلقت به وصرت أفهمه جيدا، لم يعنّيني يوما صمته الدؤوب، لأن نظرة عينيه تكفي لأفهم ما يقول، صرت جيشه الأول للتعبير عن انفعالاته وأحلامه وطموحاته وكان بمثابة الكتف الحاني بعد فراق أمي.

أتذكر يوما كنا صغارا نلعب بجوار البناية وقام طفل بكسر إصيص النبات الخاص بالسيد "ملاك" جارنا، أوشى الولد به وأخبر جارنا كذبًا أن الفاعل تميم، حار بعينيه بيني وبين الرجل يستغيث بي أن أنطق، لم يكن كافٍ بالنسبة لي أن أقول

"لم يفعل ذلك" البعض يستحق أن تستميت في الدفاع عنهم مهما كلفك الأمر، أشرت ناحية الأصيص المحطم والنبات الملقى على الأرض ثم قلت كيف لتميم أن يكسره والأصيص منقلب ناحيته، الطوبة جاءت من الناحية الأخرى، تميم لم يفعل ذلك.

نظر الرجل لي مقلبا الكلام في رأسه ثم اقتنع بالأمر، لم أنسَ نظرة تميم وقتها وكأن نظرته عناق، كأنه اختبأ داخلي خوفا من العالم، اختفى العالم من حولنا لم تتبق سوى السماء من فوقنا ولم تحملنا أرض! كالطير في السماء نُحَلِّق، رغم صغرنا لكن شيئا ما ربطنا ببعض.

مرت الأيام وكبرنا قليلا وقرر والداه الهجرة وكأن الأمر راق لتميم، كان يخبرني متظاهرا بالسعادة لكن لأنه لا يجيد الكذب ولأني أرى كلماته في عينيه فهمت الأمر، كان يحاول الابتعاد ظنا منه أنه يظلمني بحبه لي، كان ذلك جليا في نظرته الكسيرة.

(17)

عزيزي **(م)**

يؤسفني أن أخبرك أنني في أسوأ حالاتي، روحي محطمة وكأني فقدت عمودي الفقري، أنا أسير بلا سند، وحدي في هذه الدنيا،

دائما غيابهم يذبل القلب كوردة اعتادت الربيع وباغتها الخريف فجأة.

اليوم جاءني أحد أبناء عمومتي، اتهمني أنني خدعتهم بشأن الميراث، وأن هناك أموالا خبأتها لم أخبرهم عنها وأني تظاهرت ببيع البيت ودفعت للمشتري الجديد حتى يعاود كتابة البيت باسمي مرة أخرى والدليل أنني ما زلت أمكث فيه!

ألم يكفهم ما أخذوه مني! لأول مرة أشعر بالخوف كوني أعيش وحدي، هددني ابن عمي أنه سيقتلني لو تبين له أنني أسقطتهم في الفخ باحتيالي عليهم.

دفعني بيده حتى سقطت أرضًا ولم أجرؤ على التفوه بكلمة، لا أعرف لماذا لم أصرخ وأستغيث بجارتي أو ربما سمعتني أنت!

حاول أن تراسلني قريبا لأني قررت أن أغادر إلى بيتي الجديد حتى لا يشعر تميم بالحرج ناحيتي، بالطبع لن يطلب مني الشقة ما دمت موجودة بها، سأوافيك بعنواني الجديد قريبا..

صديقتك

رنين

(18)

عزيزي صاحب الرسائل المجهولة، ربما لم تعد مجهولة بعد، وددت أن أخبرك بشيء غريب، اليوم رأيت تميم أمام باب شقتي يدس لي خطابا منك!

كيف لم ألحظ تشابه الخط بينك وبينه، وكيف لم أفهم أن لا أحد سواه يعرفني جيدا كنفسه!

الآن افتضح الأمر وصرت أعرف أن (م) هو ذاته تميم، أما عن رسالتك التي اعترفت فيها أن قلبك تعلق بي وأنك لن تقبل معاملة أبناء عمومتي الفجة وتتمنى لو تفصح عن نفسك لكنك تخشى رفضي لهذا الحب بسبب صمتك الدؤوب؛ فقد وفرت عليك عناء الإفصاح عن هويتك..

أظنني أحب تميم منذ الصغر حتى بعدما تركني وغادر وكما أخبرتك يوما في خطاباتي، أنا لا أنسى إن أحببت ولا أتهاون في محبتي مهما طالت السنوات.

شكرا لك تميم أنك ساندتني في أشد الأوقات ضعفا وأن آنستني في أشد الأيام مللا..

لا أعلم هل سامحتك على غيابك لأني لا أستطيع عقاب نفسي بحرماني منك!

أم لأني أتشبث ببقايا ذكرى من الماضي نمت وترعرعت داخلي فور رؤيتي لك.

أنتظر خطابك القادم باسمك..

حبيبتك رنين

تمت

الحكاية الثالثة

قلوب بلا مأوى

اعتاد زين ابن العشر سنوات على الاستيقاظ باكراً ليذهب إلى مدرسة الحياة، بملابسه الرثة ووجهه البريئ المُلطخ بغبار اليوم السابق، يمشي على قدميه المتعبة ونعليهِ البالية المختلفة اللون والشكل، لا يملُ من ذلك كل يوم، أصبحت عادته المفضلة أن يقف بجانب باب المدرسة ينظر من بين السياج الحديدية للباب متأملاً التلاميذ الذين تشابهوا بزي مدرسي واحد وحقيبة الظهر التي يطالعها متأملاً ومتخيلاً ملاذّ الحياة مجتمعة فيها -بالنسبة لمن هم في نفس عمره- يفكر.. هل تحوي أشكالاً مختلفة من الحلوى من البائع الذي يتكدس الأطفال أمامه كل يوم!

أم رائحة السندوتشات التي تفوح من خياله المشتاق لقطعة لحم تداعب أنفه وتحركه لوعة مذاقها التي حُرِمَ منها منذ سنوات! أو بالأحرى لم يتذكر أنه تذوق منها قط سوى بعض الشطائر الحامضة التي كان يجد بقاياها في صناديق القمامة.

بعد تفحص طويل للأطفال وهم يحتشدون للتوجه إلى فصولهم يجلس بجانب حائط أحد الفصول التي تطل نافذتها إلى الشارع فيسمع الأحاديث الطفولية التي تتناغم في وقت واحد، يحاول إطباق جفنيه بشدة ويسبح قليلاً في عالمه الخاص الذي يفصله عن مشقة الواقع حيث يقول حازم:

_ أنا حزين اليوم يا زين.

فيتساءل زين بفضول طفولي:

_لماذا يا حازم، ماذا بك؟

فيرد حازم بنبرة قريبة من البكاء:

_أبي لم يشترِ لي اللعبة التي رأيتها أمس لأنني اشتريت دراجة في أول الشهر! قال لي سنشتريها الشهر القادم.

يزيد زين من إطباق عينيه ليحاول التعايش مع الحديث الذي يسترقه سمعه من داخل الفصل بين أحد الطلاب فيقول بنبرة حزينة:

_لا تحزن يا حازم، ما دام أبيك موجود بالتأكيد سيشتري لك اللعبة كما وعدك.

أتعلم، أنا حزين أكثر منك!

سأله حازم:

_لمَ يا صديقي؟

أجاب زين بأسى:

_لأنني لا أحتاج لعبة، أود فقط أن يكون لي أب وأم مثلك وغرفة صغيرة تجمعنا ننام فيها جميعا نتدفأ ببعضنا البعض في برد الشتاء القارس، أتدري.. أنا أود التخلص من جابر، ذلك الرجل الذي

يقودني كل يوم للتسول والشحاذة ومحاولة استعطاف الناس، أتخيلني كل يوم أمسكُ بفأسٍ ثم أهوي به علي رأسه فينفلِقُ إلى نصفين، أتلذذُ بقطرات دمه وهي تسيل بهدوء كقطرات عَرقي التي أجففها بأكمامي كل يوم وأنا أقوم بمسح السيارات وبيع المناديل ثم يستحوذ على مالي ولا يترك لي إلا اللَمَم، وقتها سيهون تعبي وسأنسى شقائي، لكني كلما تخيلت ذلك أفيق علي شقاءٍ أصعب! وهو أن مصيري سيظل في الشارع أبدا، أو سيتم جمعي أنا ومن مثلي ليُزَج بنا كالسجناء في إحدى دور الأيتام لنتعامل كالنِعَاج، يأتي من يقدم لنا الطعام والشراب ولا ضير من الجوع العاطفي والاحتياج إلى الدفئ الأسري فمثلنا لا يحق لهم سد نَهم بنُوَّتِهِم!

أتعلم يا صديقي، أنا أموت عطشاً لعناق والدتي التي لم أرها يوماً، واللهو مع والدي الذي لا أحمل منه شيء سوى صفاته الوراثية، حتى اسمه ضَنَّ عليَ الزمان به!

أتدري يا حازم، أتمنى أن أمسك القلمُ مثلك لأرسم بيت به أب وأم وأخوة، وتنهرنِي أُمي لأني لم أذاكر بسبب انشغالي بمتابعة التلفاز، وقتها سأكون أسعد طفلٍ في العالم.

سمعتُ أمس أحد المتسولين معي لكنه يكبرني بأعوامٍ كثيرة، يتمنى لو يتزوج وينجب أطفالاً ليعانقهم ويشعر أن له أحدًا من دمهِ، إنه لمذاق عذب أن يكون لك أهل!

لكنه ختم كلامه بأنه لن يتزوج أبدا لأنه يخشى أن يتزوج من إحداهن وتكون بالأصل أخته وهو لا يعلم!

المميز في كونك بلا مأوى أنك لا تخشى فراق أحدهم، ولا تنتظر عودة غائب، أنت تحيا وتموت دون فراق أو اشتياق! نحنُ في قاع الوحل يا صديقي وما لنا من منقذ إلا الله، الآن سأودعك لأني أسمع اقتراب خطوات جابر الذي ينعتني بأقذر الألفاظ ولا يسلم جسدي من ركلاته؛ ليجبرني أن أتخلى عن عادتي تلك التي أشتَمُ فيها رائحة طفولتي الضائعة.

أراك غداً يا صديقي..

فتح زين عينيه الدامعتين ليتلقى من جابر ضربات على وجهه ثم ألقى خرقة متسخة عليه ليقوم بمسح السيارات واستجداء المارة لطلب المال منهم.

تمت

الحكاية الرابعة

حكاية غَزَل

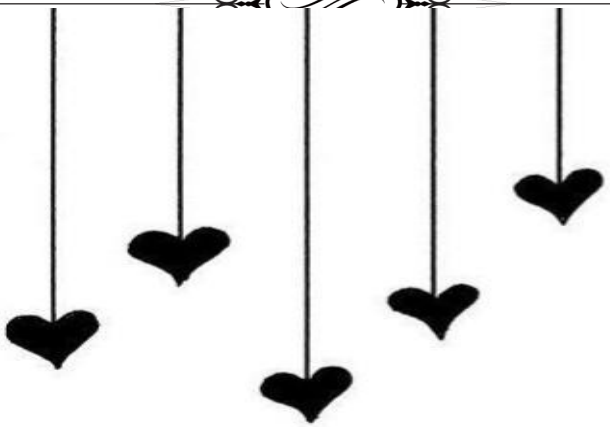

دائما غيابهم يذبل القلب؛ كوردة اعتادت الربيع

وباغتها الخريف فجأة!

كنت أختلس النظرات إليه من آن لآخر أثناء شرحه الدرس، مُدرسي الخصوصي الذى أحضَرهُ والدي ليقويني في مادة الفيزياء.

كثيراً ما بدوت له غبية وبطيئة الفهم لكثرة ما يكرر المعلومة مرارًا دون فهمٍ مني، كان لا يدري أنني أسرحُ في لون عينيهِ المائل إلى خُضرة الشجر ورموشهُ الطويلة التي تقوست أطرافها كأنها انحنت لجمالِ عينيهِ إجلالاً!

كنتُ أُراقب قسمات وتعبيرات وجههِ حينما يبدو عليه الاهتمام بتفسير جزئيةٍ ما، أو ألوذُ بغضبه ونبرة صوته التي تعلو وتهبِط في حياء حتى لا يجرح شعوري، يدَهُ اليسرى حينما تقبضُ على القلم بتمكُن عجزت عن فهمه، كلما خَطّت يدهُ حروفاً بها حاءٍ وباء، زادت لوعتي وحنيني إليه، كم أحببتهُ في صمت! حتى أنني أستحي أن يشعر بإطالة نظرتي إليه، فكُلما تلاقت العينان استسلَمَت جفوني حتى لا يفتضح أمري.

ذات مرة أتاني مريضاً، كان مُصِرًا على شرح الدرس، لم أدرِ أن قلبي سيتمَزق إربًا لصوت سُعالِه وبحيح صوتهِ المُتهدِج، كنت أحاول الاستيعاب سريعًا كي لا أزيد تَعبهِ مما أثار دهشته!

لم يكُن يعلم وقتها أنني أتظاهر بعدم الفهم لتطول مدة المكوث أمامهِ، رائحة عطرهِ التي تُداعِب أنفي قبل وصولهِ لتعبثَ بقلبي دون هوادة فتجعلني أتحرك ذهابًا وإيابًا ناحية الباب لأستقبلهُ قبل أن يفتح له أخي.

كان نِعم المُعلّم ونِعمَ الصديق رغم أنه يكبُرني بثمانية أعوام إلا أنه استطاع أن يشغل قلبي وعقلي دون أدنى مجهودٍ منهُ.

كُنت أعشق نظرتهُ المثبتة في الكتاب احتراما لآداب مهنته وصيانة للأمانة التي ائتمنه والدي عليها.

لم أنسَ آخر لِقاء لنا حينما أتى حزينًا تتلألؤ عينيهِ ببصيص دمع وكان حاله لا يختلف عن حالي كثيرًا، ودعني وتمنى لي النجاح والتوفيق وكانت تِلك الدمعة المُترقرقة في عينيهِ بمثابة عهد تعاهدناهُ معًا، أكدت لي عينيه أنه سيعودُ يوما ما، أمرتني ألا تنقطع حِبال الوِد حتى لو لم نتلاقَ، لم أشعر بنفسي حينها إلا وأنا أُحَطِّم حواجز كانت بيننا وأقول له سأنتظرك.

سأنتظرك لتكون أول المهنئين لي على شهادتي الجامعية.

فاجأني بقولهِ:"بالتأكيد سأُهنئكِ على أشياء كثيرة قبل تخرجك يا غَزَل" كنتُ أطير فرحاً وكأنه تقدم لخطبتي لتوه! ودعني وغادر

وهو يقاوم دمعة تود الفرار من عينهِ فأسرع نحو الباب تاركًا دموعي تسيلُ على خدي.

مرت الأيام وانقطعت الأخبار أُذاكر وأُكافِح على أملٍ أن تحمل لِي الرياح نفحة من عطره، اجتهدت وتفوقت وكنتُ من حين لآخر أحاول أن أقتفي أثرهِ لكن دون جدوى!

ذهب مع الريح وكأن شيئًا لم يكن، حصلت على البكالوريوس وانتظرته ليكون أول المهنئين -كما وعدني- أو حتى آخرهم، لكنهُ لم يعُد!

لا أدري سبب حنيني إليه طيلة هذه المدة، كنتُ أفي بعهدي معه، أم أنني لم أر في الرجالِ غيره!

عُميت عنهم جميعًا وبصرت به وحده!

ذات يوم قررت أن أخرج عن صمتي فهاتفته لكن كان هاتفه مغلق!

لِمَ فعل بي هذا؟! الحقُ يقال هو لم يفعل، أنا من تعلقت وانتظرت وأضعت عمري أنتظر يوم اللقاء!

الآن أنا في الثلاثين من عمري ولا أعلم عنهُ شيء لكني ما زلت أنتظره.

مرت السنوات تجرُ بعضها البعض، سئمَ والداي حججي الواهية في كل مرة يتقدم لي أحدهم لخطبتي فأُبادرهم بالرفض.

عِشتُ سنواتٍ طوال أحلمُ بهِ كلما غفوت ولو قليلا، وأيام تمرُ عليّ يُجافيني فيها النوم فأغرقُ في أحلام يقظتي، كان هو بطلها الدائم، احتفظت بكل ورقة خطَّ فيها قلمه، حتى القلم الذي أهداني إياه ذات مرة جف حبره ولم يجف حبي له لحظة، أبحث عنه بين المارة في كل مكان أذهب إليه، حتى أنني ذات مرة ذهبتُ إلى المدرسة التي كان يعمل بها لأسأل عنه أخبروني أنه انتقل إلى محافظةٍ أخرى، سئمتُ الحياة وسئمتُ قلبي لأنه لا ينسى، في كل مرة عاهدني فيها قلبي أن ينساه كنت أنا وهو نخلف العهد ونتسابق لتذكره ثم نمكثُ على أطلال الذكرى ننزف دمعات فاضت بها الأنهار، كلما تظاهرتُ بالنسيان نازعتني نفسي إليه.

دعوت الله كل ليلة أن يقربهُ لي رغماً عنهُ، حتى لو لم يكن يتمنى لقائي!

فقط وددت أن أسأله، كيف علق قلبي به لهذه الدرجة؟! كيف كان خلوقًا معي للحد الذي جعلني أحبه لأنه حافظ عليَ حتى من نفسه؟!

كيف يصون الأمانة ويتركها فجأة؟!

هل كان التخلي عني سهلاً إلى هذا الحد؟

لا أدري لمَ ينتظرهُ قلبي دون مللٍ هكذا!

هل لأنني لم أفكر لحظة أن أكون لغيره؟! أم أنني حقا أحببته حد الموت!

إما أن أكون له وحده أو الموت لأحظى بفرصة ملاقاته في الجنة.

أشفقت والدتي عليَ كثيرا خاصة بعدما تزوج أخي الأصغر ولم يتبق سواي، أنسج خيوط الوحدة حولي كل ليلة بعناية وبإرادتي ثم أنقض غزلي بتذكره!

لا شيء يبقيني على قيد الحياة سوى الدعوات التي أهمسُ بها لربي في قيامي وفي سجودي، لم ينقطع الأمل لدي قط أنني سألقاه يومًا، ما دُمتُ أدعو الله بلقياه.

تُرى لو قابلته ما الذي تغير فيه؟ هل تزوج؟ هل أَحَبَها؟ هل أنجَب أطفالا يحملون اسمه وصفاتٍ من وصفه؟

هل تسير حياته بشكل طبيعي بينما أنا!

لحظة! هل كنت سأقول حياتي متوقفة؟!

هل كنت لأسمح للساني أن يتجهم عليه بأنه سبب توقف حياتي!

أنا مسئولة عن كل ما أنا فيه وسيظل قلبي يدافع عنه حتى ألقاه، حتى لو التقيته في عالم آخر.

مرضت والدتي وكانت تتألم من ساقيها بشدة، قمنا بزيارة الكثير من الأطباء ولكن دون جدوى، نصحتني صديقة بزيارة طبيب متخصص في حالة والدتي في الإسكندرية، اصطحبتها أنا ووالدي وانتقلنا للإقامة بالإسكندرية طيلة فترة العلاج.

أمواج البحر الثائرة تُذكرني دومًا بالأفكار التي تدور داخلي كل ليلة، لم يستطع أي شيء أن يشغلني عن التفكير به لحظة، أصبح الشرود طابعي ولمحة الحزن التي تكسو ملامحي جزءًا مني.

اليوم موعد أُمي الأسبوعي مع الطبيب، وصلنا في الموعد المحدد وقد حان دورنا بعد الحالة الموجودة في غرفة الكشف، انفتح الباب وخرج شاب وخلفه آخرون فأسندتُ والدتي واتجهنا ناحية الباب استعدادًا للدخول.

كادت تسقط مني لولا أن أحدهم أسندها بيدهُ وقد كان متكئًا على عُكاز ليعوضه عن إحدى ساقيهِ المبتورة، رفعتُ رأسي ناحيتهُ لأشكرهُ لَكِني والله لم أتمالك نفسي حينما رأيت وجههُ، نعم إنه هو حبيبي ومُعلّمي وهاجري.

اضطربت واختلطت المشاعر داخلي بمزيج من الحنين والاشتياق والعتاب واللوم، فرَّت دمعة مني رغمًا عني، لا أدري هل أبكي لما أصابه أم أبكي من فرحتي برؤيته؟

لم يتغير كثيرًا بل زادته السنين وسامة، ظهر بعض الشيب الأبيض في لحيته وعلى جانبي شعرهِ، وقف مشدوها للحظات ثم تلفتَ حوله كأنه يريد التملص مني لكن عيني أحاطته بنظراتها المتلهفة حتى استسلم، باحت عينيه بالكثير، شعرت وكأنها عانقتني اشتياقًا!

ألقى السلام على والدتي وذكرَّها بنفسه فرحبت به، لا أود الدخول إلى غرفة الطبيب الآن حتى لا يفرُ مني ثانية، حتى لو لم يكن لي فأنا فقط أود التحدث إليه وكفى ثم يرحل إذا شاء، فاجأني حينما استأذن والدتي أن يدخل معها كي يطمئن عليها.

أخفيت دموعي حتى لا يفتضح أمري أمام والدتي، رآني وأنا أتوارى كي أمسحُ دمعة فرت من بين جفوني التي أبت أن ترمش حتى ترتوي من وجهه الذى تعطشت إلى رؤيتهِ كثيرًا.

سَألَتهُ عيني لماذا تركتني وحدي وأنت تعلم أنك منِي؟! لماذا سرقت قلبي ثم قررت الرحيل دون أن ترُدَهُ إلي؟! لم أجد أي إجابة في عينيه سوى نظرة مكسورة صوبها نحو قدمهِ المبتورة، رقَّ قلبي لحالهِ وعاتبت نفسي على نظرتي المعاتبة.

انتهت زيارتنا للطبيب وقبل أن نتفارق سألني:

"كيف حالك يا غَزَل؟"

أجبتهُ دون تفكير وابتسامة هادئة تسكن وجهي:

" أنا الآن بخير"

سألني "كم عُمر أبنائك؟"

فقلت "أنا لم أتزوج بعد"

صُعِقَ لقولي وظهر على وجههِ خليط من المشاعر حُزن ممزوجٍ بفرح، لا أدرى كيف يحزن المرء ويفرح في آنٍ واحد كالذي يبكي فرحا!

سألته في ترقُب "وأنت؟ كم عُمر أبنائك الآن؟"

فأجابني بابتسامة هادئة:

"أنا مثلك .. لم أتزوج بعد، لكني لدى ابنة ولستُ بأبوها عمرها الآن ثلاثون عام".

توردت وجنتاي التي ظننت أنه قد انطفئ لونها منذ زمن، شَعرتُ أنني عُدتُ لأعوام مضت وصغُر سني وخَفَّت روحي، صرتُ أُحَلِّق في السماءِ بأجنحةٍ بيضاء تشُقُ السحاب بأسهُم الفرح لكني شعرت بانقباضه فجأة خوفًا من السقوط من السماء السابعة إلى أسفل، طلب مني رقم هاتفي ثم ودعني ووعدني بلقاءٍ آخر، خشيت أن يفعلها ولم يعُد كما فعلها سابقاً.

في ذات اليوم رن هاتفي وازداد توهجًا باسمه، طلب مني أن يتحدث إليَّ قليلاً فقال:

"أنا آسف على ضياع سنوات عُمرِك، لم أكن أعلم أنكِ تحملين لي كل هذا القدر من الوفاء وأنكِ صادقة الود لهذه الدرجة، قلتُ لنفسي إنها مجرد مشاعر مراهقة وستبرد يومًا ما، ظننتُ أنكِ ستنسين مع الأيام، حينما ودعتكِ ووعدتك كنت صادقًا، لم أكن أعلم وقتها إن القدر يُخبئ لي حادثا مروِّعا تكسرت فيه عظامي وأُصبْتُ في عمودي الفقري إصابات بالغة وفقدتُ قدمي اليسرى وأصبحتُ أسيراً للكرسي المتحرك لسنواتٍ طوال، أدركت وقتها أنني أصبحت لا أليقُ بكِ، وأنكِ تستحقين من هو خيرٌ مني.

ما ذنبك كي تتحملي معي رحلة علاج طويلة دون أمل في الشفاء التام وأنتِ ما زلتِ في عمر الزهور!

فكرتُ كثيرًا وكان أفضل الحلول أن أنتقل إلى بلدٍ آخر، حطمت قلبي بنفسي ولم أعلم أني أتنفس برئتيكِ وأبصرُ بعينيكِ وأحيا بكِ، تركتُكِ يا صغيرتي وفقدتُ معكِ كل معاني الحياة، كنتُ لا أمَلُّ من إغماض عيني لأراكِ، حرمتُ نفسي منكِ ولا أعلم أنكِ تنتظريني كل هذه الأعوام.

فقط كل ما أفسد حياتي هو أن أرى صورتكِ أمامي بالفستان الأبيض وبجانبك رجلٌ قَعيد أسير لكرسي متحرِك، كلما صَوّرَ لي خيالي هذه الفكرة سقطت وتهشمت صورتي أمام عيني، انتابتني نوبات اكتئاب حادة وأصبحتُ أضعف من ورقة حملتُها الرياح وقذفتها في بحرٍ هائج يُقَلِبها يمنى ويسرى دون هوادة.

ازدادت حالتي سوءًا حتى اصطحبني أحد أصدقائي إلى طبيبٍ نفسي، تناوبت على زيارته مع طبيب العلاج الطبيعي حتى جاء اليوم وحطمت ذلك الكرسي وسقطتُ أرضاً، كلما حاولت الوقوف أراكِ أمامي بابتسامتكِ المعهودة تَمُدينَ إليَّ يدكِ لأقِف، حاولت مرارًا وطالت المدة حتى جاء اليوم، رأيتُكِ تبكين فحاولتُ وقاومت حتى وقفتُ وحدي مستنداً إلى الحائط.

مر بعدها وقت طويل حتى استطعتُ أن أخطو أول خطوة كطفلٍ صغير يتعلُم المشي وحده متكئًا على عكاز.

مضت ثلاثة أعوام علي أول خطوة خطوتُها، كلما أعدت التفكير في العودة إليكِ شعرتُ أن قراري كان صائبًا حينما ابتعدتُ عنكِ.

كلما أتتني خاطرة أن أراكِ من بعيد لأطمئنُ عليكِ تذكرتُ أنني لن أستطيع أن أُطوقكِ بذراعي شوقًا، كانت روحي هشة ضعيفة لا تقوى على المواجهة فآثرتُ الابتعاد.

لكن الآن جمعني بكِ القدر لحكمة ما، أنا لم أنساكِ لحظة واحدة يا غَزَل! "

سادت لحظات من الصمت بكيتُ فيها فرحًا وحزنًا في آنٍ واحد، سألتهُ وحروفي تُمزقني حنينًا له

"لماذا لم تعطني فرصة الاختيار؟"

أجابني بهدوء:

" لأنني كنتُ أراكِ فتاتي المُدللة لا يمكن أن أصبح عبئًا عليكِ وقد كان هدفي منذ أن أحببتك هو إسعادك فقط، أن تكوني طفلتي وحبيبتي وزوجتي وأم لأطفالي لذلك لم أفكر يومًا أن أتزوج غيرك لأن السعادة التي أستطيع منحها لامرأة أصبحت حِكرًا لكِ وحدك دون الأخريات.

سألتهُ:

"وهل ظننتني أحيا طيلة هذه السنوات سعيدة؟!

لقد قتلتني في اليوم مئة مرة ببعدك عني، كيف تحرمني أن أكون سلاحك القوي في مواجهة آلامك، صدقني أنا أَوْلى من الطبيب الذي كنت تذهب إليه ليُريحك من نوبات اكتئابك".

رد بحزن:

"إحساسي بالعجز هو ما منعني، لم أكن لأضعكِ في موضع اختيار صعب كهذا"

قلت بخجل:

"لكني كنت سأقبل"

باغتني بسؤاله مترقبا:

"وماذا عنكِ الآن؟"

ارتعشت يداي وشعرت بروحي حرة طليقة وكأني امتلكت العالم كله وليس قلبه فقط، قلت له في حدة مصطنعة:

_كيف تسألني ولديك الإجابة، ألستُ مُعلمي الذي يملك كل مفاتيح الإجابات، كنت ضعيفة في مادة الفيزياء لكني الآن قوية بك، أسكُنك وتسكُنني، أما يكفيك كل هذا الوقت الذي ضاع بسبب تفكيرك في إجابتي، عليك أيها المعلم الحضور لتعويض كل أيام الغياب، أنا مستعدة للاختبار وصدقني سأنجح وأكون الأولى وليس بعدي شيء.

تمت

الحكاية الخامسة

شطائر بطعم الغربة

فتحت نافذتي باكرًا، أتنفس نسمات الصباح النادية، سماء صافية تميل إلى الرمادية بفعل غياب أشعة الشمس الدافئة، تداعب أذني زقزقات متفرقة من شجرة كبيرة مجاورة لبيتي، يكاد يخلو الطريق من المارة، أضبط من وضع وشاحي فوق رأسي ثم أرشف الشاي بمزاجٍ رائق، أراه من بعيد قادمًا يمشي بتؤدة حاملا فوق كتفه أعباءً أحنت كاحله، يحمل جوالا شبه فارغ إلا من قليل وبيده الأخرى خشبة عريضة منبسطة يجمع بها القمامة من الأرض، تراه رجلا في الخمسين من عمره لكن تجاعيد وجهه أعطته سنًا أكبر من ذلك، ملابسه نظيفة فلم يبدأ العمل بعد، بدأ ينحني عند كل كومة تقابله بمحاذاة الرصيف ثم يجمعها بيده والخشبة المنبسطة فيلقي بها داخل الجوال، ينحني ظهره

فترى فقرات عموده الفقري برزت لأعلى ثم تختفي في ملابسه الواسعة فور وقوفه، لو أرهفت السمع لسمعت تسبيحاته تشق عنان السماء، وحروف الحمد تمسك فرشاة لترسم على شفتيه ابتسامة رضا! راضٍ بما قسمه الله له، صابر على مشقة عمله من أجل سد الأفواه المتعلقة برقبته!

ناديته من الشرفة، نظر لي باندهاش فأشرت له أن ينتظرني، دخلت إلى المطبخ وضعت شطائر محشوة بالفول والفلافل ثم دسستهم في علبة بلاستيكية، حملت كوبين من الشاي والشطائر ونزلت مسرعة نحو المقعد الخشبي المجاور لبيتي، أشرت إليه فجاء على استحياء فدعوته ليشاركني فطوري والشاي الساخن، ابتسم وشكرني بحياء ثم مسح يده في قميصه وجلس على المقعد يتوسطنا الطعام والشاي، بدأنا في تناول الشطائر ناظرين إلى اللا شيء أمامنا، قلت له قاطعة الصمت الذي خيم على المنطقة بأكملها:

_لماذا لم يعُد والدي من الخارج يا عم فوزي؟ أما يدري أنني اشتقت إليه! أتدري، أنا لا أريد الأموال التي يجمعها طيلة السنة فيعود لي كل عامين ليقضي شهرا معنا كالغريب، نخرج ونسافر ونتنزه ونزور الأقارب ثم يفر الشهر سريعا ويفر الطائر الذي اعتاد غربته إلى وطن لا يحمل ذكرياته ولا تحمل طرقاته رائحة حب أبنائه! لم أعد أفتح تلك الشاشة اللعينة التي يجود بها علينا برؤياه كل يومين أو ثلاثة كلما فرغ قليلا من عمله، لم أستطيع حفظ ملامحه جيدا، منذ نعومة أظافري لم يقم معنا أكثر من شهرين، لا أتذكر ملامح أبي في شبابه، حتى أنني لا أتذكر تفاصيل وجهه الآن أيضًا، أتدري يا عمي! لقد امتنعت عن أخذ مصروفي الذي يرسله لنا

كل شهر، الآن أعمل لأدبر أموري دون الحاجة لتلك الأموال التي تحجبه عني، إن الغربة تقتل أبناءً في أوطانهم شوقًا وتطعن آباءً في أحلى أيام عمرهم فرادا!

أصابني الإحباط حين أرسلت لوالدي صورا لي وأخوتي في المرحلة الإعدادية فلم يستطع التفريق بيني وبين أختي! أخبرني، أي رابطة هذه! لقد أخبرته مرارا أننا سئمنا الغربة ونحتاجه بيننا فكان مبرره أنه يود تأمين مستقبلنا ونسي حاضرنا وماضينا، نسي حفل تخرجي من الجامعة حينما ترقبت صورته بين الحضور فلم أجد سوى أمي وأختي، أبحث بين الحاضرين عنه فلم أجده، العام تلو العام يخبرنا أبي أنه سيعود للأبد؛ فينكث وعده ويفارق، أما عن أمي فهي امرأة ضائع شبابها لتحسن تربيتنا وتعوضنا عن غياب أبينا، ترى الشيب يغزو خصلات شعرها وحين تسألها كم من

عُمرك قضيتِ برفقة أبي؟ فتقول أربعة وعشرون شهرا طيلة عشرين سنة زواج! لا.. لا تظن أنني أُشير بأصابع الاتهام إلى والدي، أعلم أنه مرض كثيرا بمفرده ولم يجد من يعطيه رشفة ماء، بل إنني ألعن أعذاره، أخبرناه كثيرا أننا لا نحتاج المال قدر احتياجنا له، نود أن نتكئ عليه ولو قليلا، نشعر بدفئه ووجوده، نشعر بوجود عمودنا

الفقري الذي يصلب أجسادنا الهشة، أخشى أن يأتي أبي بعد فوات الأوان..

التفت إليَّ العم فوزي دامع العينين، تدلت شفته السفلى فاغرًا فاهه، سقطت الشطيرة من بين أصابعه، قال بوهن:

«أتدري يا ابنتي، لم تذق ابنتي طعم النوم أمس، لم أستطع تدبير المال الكافي لإتمام زواجها، أظنها لعنت وجود أب فقير مثلي في حياتها، أظنها تمنت أب حتى لو كان مسافرا ولا تراه، رأيتها تُخبئ وجهها في وسادتها مني قبل مغادرتي البيت، لم تقل حتى صباح الخير، لم تبتسم ابتسامة رضا تخبرني أن سعيي محمودًا، أظن أن أبيكِ يفكر في صالحكم ولو بشيءٍ من الصحة! لا تلوميه ولومي الزمن الذي جعل أباءً وأبناءً مشتتين في بقاع الأرض كل منهم يحمل داخله حبًا لكن أعباء الحياة مزقت روابطهم.

أنهى عبارته ثم انتبهت لخيال فتاة قادمة من بعيد، تجري مهرولة، تبحث في الطرقات عن شيءٍ ضائع كأنما فقدت قلبها في أحد الشوارع، لمحتنا من بعيد فوقفت تلتقط أنفاسها المتقطعة، أقبلت نحو العم فوزي بلهفة، عيناها دامعتين، متورمة الأجفان، جلست على ركبتيها وانحنت نحو يد أبيها وقَبَّلتها ثم قالت:

«سامحني يا أبي، لو قضيت عمري كله في كنفك دون زواج؛ لن يضيرني شيء».

ابتسمت بهدوء ثم نفضت يداي من أثر الشطائر، أحكمت وشاحي حولي جيدًا ثم شرعت في العودة لبيتي، وقفت على بعد خطوتين من العم فوزي والتفتت ناحيته وقلت بصوت يشوبه البكاء:

«أظنك لم تشعر بمذاق الشطائر اليوم لأنك افتقدت ابتسامة ابنتك صباحا، تناول فطورك برفقتها وتذوق الطعام الذي لم أشعر بمذاقه منذ أعوام!»

تمت

«وبقلب كل غريب حكاية عاشها والتزم الصمت»

الحكاية السادسة

نقـــــــرة

أحياناً تُكافئنا الحياة بتحقيق ما نراه مستحيلاً، للدرجة التي تشعر فيها أنك تعيش حياة مثالية، كل شيء في مكانه الصحيح، لا تدري إن كان ما تعيشه حقيقة أو وهم في خيالك.

أنا راضية تماماً عن حياتي الشخصية والعملية رغم الإيذاء والاضطهاد الذي أتعرض له من آنٍ لآخر، لكني استطعت تحقيق نجاحًا مبهرًا في عملي وسرعان ما وصلت لمركز مرموق في الشركة التي أعمل بها فأصبحت رئيس مجلس الادارة.

أما على المستوى الشخصي فأنا زوجة ناجحة، تزوجت الطبيب الذي أحببته، بدأت قصتنا حينما التقيته في المطعم المجاور لشركتي والمصحة النفسية التي يعمل بها أيضاً، كان وسيماً متوسط الطول خمري البشرة قليلا، لكنه لم يلفت انتباهي في البداية، كنت أحتسي قهوتي الصباحية وكعادته يفعل أيضاً، نتبادل التحية كنوع من الألفة لأني ألتقيه يومياً في نفس المكان وفي نفس الموعد حتى انقطعت عن الحضور لفترة فالتمس غيابي وافتقد رؤيتي صباحاً، ما جعله يبحث عني حتى عُدت من إجازتي وجدته يخترق صمتي ويستأذن في الجلوس معي على طاولتي فوافقت، أخبرني أنه افتقد وجودي كثيرا، أبدى نوع من الفضول لماذا قطعت عادتي الصباحية، شعرت بالاضطراب والقلق، لم أعتد على إرضاء

فضول الآخرين بهذه السهولة، أخبرته أنني كنت أحتاج لهُدنة، أسترح فيها قليلاً من ضغوط العمل.

لا أنسى جرأته حينما سألني:

«ما نوعية الضغوط التي تجعلكِ تلتهمين ذاتك هكذا؟! يبدو أنكِ تعُضين شفتيكِ بأسنانك، إنها مجروحة بشدة!»

ارتبكت وكان ذلك واضحاً على ملامحي فلم أُجِب على تساؤله واكتفيت بالنظر ناحية النافذة وأنا أرتشف قهوتي.

شعر بإحراجي فبادر قائلا:

«أقدم لكِ نفسي، عزيز الفيومي، أعمل طبيبًا نفسيًا في هذه المصحة، سألتكِ ما طبيعة الضغوط لأساعدك ليس أكثر، أعتذر لو ضايقكِ تدخلي على أي حال»

وضعت فنجاني جانباً وقلت بهدوء:

«لا عليك.. أنا حقاً اعتدت عضَ شفتيّ حين يشغلني أمر صعب، نحن خمسة في المكتب نتنافس على مركز مرموق، البعض يستخدم حيل دنيئة للإطاحة بي من هذه الترقية».

قال محاول تهدئتي:

«أرى أن الأمر يُكدر صفوك، لكن باستطاعتك تخطي ذلك بالاجتهاد والسعي مهما بلغت حيلتهم، أنا أثق بكِ».

ابتسمت لكلماته الأخيرة؛ فلم أعتد أن أكون محل ثقة الآخرين أو أنني لدي أدنى قدرة على تخطي المصاعب، حتى والدي كانوا دائماً ينعتوني بالفاشلة لمجرد أنني لم أحصل على مجموع في الثانوية العامة يؤهلني لكلية الطب رغم حبي لإدارة الأعمال لكنهم يريدون تحقيق أحلامهم فحسب، لم أطمح يوماً أن أكون طبيبة قدر طموحي أن أصبح سيدة أعمال مرموقة.

١٣ سبتمبر ٢٠٠٩

مذكرات زينة

نقرتُ الباب نقرتين واستأذنت في الدخول:

_كيف حالك اليوم يا عزيزتي؟

أغلقت دفتر مذكراتها، لم ترد لكنها اكتفت بهز رأسها بإيجاب فبادرتُ قائلة:

«أنا حياة.. أعمل هنا منذ فترة قصيرة، سأتابعكِ بدلاً من دكتورة علا؛ لأنها ستلِد وسوف تنقطع عن العمل لفترة طويلة».

جلست معها قرابة الساعة أحاول استدراجها في الحديث لكنها لم ترد إلا بكلماتٍ شحيحة مقتضبة كأنها في عالم آخر، ترى آخرين قد يثيروا ابتسامة خفيفة على شفتيها وتارةً أخرى تتوالى الدمعات على خديها، شاردة في خواء متسع تراه وحدها، حاولت إثارة انتباهها

فأخبرتها أنني قطعت إجازة شهر العسل لأعود لعملي لكنها لم تنتبه، أنهيتُ جلستها العلاجية حتى يتسنى لي مراجعة الملف الخاص بحالتها أولاً، تمنيت لو قرأت دفتر مذكراتها الذي تحتضنه بشدة كأنها تتشبث بالذكريات التي حُفِرَت فيه وتخشى أن تفتقدها.

جلستُ على مكتبي أرتشف كوباً من الشاي وأطالع الملف الخاص بحالتها بهدوء، كان التشخيص النهائي لحالتها "فصام بارانويدي!".

إنها شابة في السابعة والعشرين من عمرها تعرضت لعنف أسري شديد منذ صغرها وحالات من الإحباط المتكررة، تفكك أسري وقسوة والدها مع لامبالاة الأم وبرود المشاعر بينهما صنعت منها مريضا نفسيا، إلى جانب قصة حب فاشلة أدت إلى انهيارها بعدما تعلقت بالحياة قليلاً وحينما اكتشف حبيبها حقيقة مرضها تخلى عنها فعادت لنقطة الصفر، خطت جملة واحدة عنه في إحدى جلسات الإسقاط بالورقة والقلم:

(كان الحقيقة الوحيدة في حياتي والباقي كله اختلاق)

تابعتُ حالتها قرابة الشهرين، أجلس معها يوميا لمحاولة غرس الثقة بيني وبينها لأستطيع مساعدتها، بدأت حالتها في التحسن ببطء شديد حتى ذلك اليوم الذي ارتكبت فيه خطأ -سهواً مني- لا يفعله طبيب في خبرتي المهنية، قمت بالرد على هاتفي أثناء الجلسة العلاجية لها، كان عزيز زوجي يُلّح بالاتصال مراراً ليخبرني أنه ينتظرني بحديقة المصحة لنتناول غدائنا معاً.

تغيرت تعبيرات وجهها من الجمود إلى العبوس فور سماع اسمه! لأول مرة تسترسل في الحديث معي، سألتني:

_ماذا يعمل زوجك؟

أجبت بتلقائية:

«عزيز طبيب نفسي، لكنه يعمل في الفرع الآخر للمصحة»

ازدردت ريقها ثم قالت بشرود:

«دكتور عزيز الفيومي؟»

لاحظت أنها على غير عادتها فأجبت باختصار أثناء جمع أغراضي:

«نعم»

فقالت بملامح جامدة:

«أود أن أقابله، فهو أول طبيب قابلته في المصحة»

اصطحبتها إلى حديقة المصحة وكان زوجي ينتظرني وقد وضع الطعام على الطاولة، اقتربت منه ثم دعوتها للجلوس بجانبي لكنها تبادلت نظرات مع زوجي لم أفهمها، ظهر على ملامحه التوتر بينما هي استحالت ملامحها إلى الغضب، عقدت حاجبيها بشدة كأنها تتألم، امتدت يدها إلى السكين على طاولة الطعام، رفعته في الهواء ثم هوت به على زوجي.

غرست السكين في قلبه بعنف، لم أصدِّق ما رأيته، كانت متلذذة بما تفعل تعلو شفتيها ابتسامة انتصار وتشفِ، ضحكت بهيستيريا وهي ترى اندفاع الدم منه.

سقط أرضاً وسقطت معه مغشياً عليّ، أفقت من إغمائي فوجدتني أرقد في المستشفى وبجواري صديقتي، سألتها بوهن عن زوجي فأخبرتني أنه في غرفة العمليات وطلبت مني الدعاء له، قمت مسرعة أسير على غير هدى أسارع خطواتي لأطمئن عليه، وقفت أمام غرفة العمليات ألوم نفسي، تساؤلات عدة انبثقت في خاطري.

لماذا حاولت قتل زوجي؟ لم أعتد منها على أي تصرف عدواني!

قطع شرودي خروج الطبيب من غرفة العمليات أخبرني أنه سيبقى في غرفة العناية المركزة إلى أن تستقر حالته.

خرجت من المستشفى ثائرة الوجدان منذرة بعاصفة هوجاء، اتجهت ناحية المصحة، منعني المدير من الدخول إليها بقوة، أخبرني أن حالتها مزرية وتم السيطرة عليها بصعوبة بفعل المنومات وأن ضابط الشرطة يقف على باب غرفتها، كدت أفقد عقلي، أود معرفة سبب فعلتها تلك بأي طريقة.

دسستُ في يد العاملة المشرفة على نظافة الغرف الكثير من النقود في مقابل أن تُحضر لي ذلك الدفتر الذي لطالما وجدتها تحتضنه بشدة، غير عابئة بأخلاقيات مزاولة المهنة؛ فهنا ترقد امرأة حاولت قتل زوجي.

فتحتُ ذلك الدفتر بعشوائية، مررتُ بعيني على ما دونته، فكانت أشبه بمذكرات تنهيها بتوثيق التاريخ وتوقيعها أسفل منه.

"لم أُصدق نفسي، أخيراً ابتسمت لي الحياة، فقد فاجئني عزيز وتقدم لخطبتي"

15 فبراير 2009

زينة

"اليوم تتحقق أولى أمنياتي، ستجمع وثيقة الزواج اسمي واسم عزيز، وكأن الله عوضني به بعد أيام من العذاب التي قضيتها في التنقل بين والديّ"

20 إبريل 2009

زينة

تابعتُ القراءة بسرعة شاخصة العينين وكأن الموت تجسد لي بين سطورها، أرى صورتها تتطلع لي باستهزاء بين حروفها، يشق سمعي ضحكاتها الهيستيرية التي كانت تضحكها وهي تراه يسقط أمامها قتيلاً.

شعرتُ بالاختناق هل كان يخدعني طيلة هذه المدة؟! إنها أحداث وذكريات وحياة كاملة تجمع بين زينة وزوجي عزيز الذي ظننت يوما أنه أحبني بصدق، كدتُ أفقد لُبِّي لولا أن استيقظ حدسي بصفتي طبيبة نفسية، ماذا لو كان كل ذلك وهم تعيشه زينة وحدها وخاصة أنها أخبرتني أنه أول طبيب قابلته هنا! لكن كيف عرفت أن لزوجي موعد مقدس لوجبة الغداء؟ كيف عرفت أنواع الطعام المحببة له كما ذكرت هي في مذكراتها، كيف عرفت تفاصيل عن حياته لا يعلمها إلا من تعامل معه عن قرب لفترات طويلة؟! لابد أن أسأله ولكن كيف؟

اعتصر الألم قلبي لمجرد تخيل أنني لم أكن زوجته وحبيبته الأولى كما زعم، تجاوزت عدة صفحات حتي لفت انتباهي صفحات مكتوبة بحبرٍ أسود:

"اليوم من الأيام القاسية التي مزَّقت روحي، تشاجرتُ مع عزيز بسبب إصراره على سفره للخارج في بعثة طبية سوف تستغرق

وقتا طويلاً غير مبالٍ بوجودي في حياته، كيف يتركني بعدما تعلقت به، لن أستطيع العيش بدونه إما الحياة معه أو الموت، حاولت الانتحار لكني فشلت، ولكي يطمئن علي أودعني في المصحة التي كان يعمل بها حتى لا أكرر فعلتي مرة أخرى".

16 ديسمبر 2009

زينة

"لا أستطيع العيش بدونه، غادر وتركني وفقدت السيطرة على نفسي، تراودني فكرة الانتحار مع كل نفس يقتحم رئتي يذكّرني أنني أحيا بدونه، أنا أكره نفسي وأكرهه لأنني أحببته أكثر من نفسي، سأقتله إن عاد وسأقتل نفسي بنفس السكين؛ لأتخلص من حبه الذي يطاردني في صحوي وفي نومي، إن لم نعش معاً؛ إذن لنمت معاً".

28 ديسمبر 2009

زينة

أغلقت دفتر مذكراتها وفتحت ملفها التشخيصي بسرعة، راجعت تاريخ إيداعها بالمصحة ١٦ديسمبر ٢٠٠٩ كما ذكرت هي آنفاً، وهو نفس اليوم الذي قدم فيه عزيز طلباً بنقله إلى الفرع الآخر للمصحة.

فهمت الآن سبب ابتعاده عن تلك المصحة، وإصراره على عدم التواجد فيها وإلحاحه علي بنقلي معه رغم قربها من منزلنا.

قمت مسرعة وسلمت الدفتر للعاملة، اتجهت ناحية المستشفى تخنقني عبراتي ولا أستطيع البوح بما يجول في صدري، استأذنت الدخول للاطمئنان عليه، جلست بجواره مشتتة، هل أحزن عليه أم على قلبي الذي طعنه ببراعة؟ تمنيت لو كان سليماً لأصفعه على وجهه وأصرخ فيه وأركله، لماذا أخفى عني أمر زواجه؟ لماذا لم يخبرني ويترك لي الخيار؟

شعرت بذوبان كل الحب والاحترام الذي أكننته له، قلت له والألم يعتصرنِي:

"لا سامحك الله يا عزيز .. فقد خدعتني".

جلست في ردهة المستشفى أنتظر إفاقته، رن هاتفي فأجبت، سمعت صوت العاملة يتردد في أذني بخوف:

«دكتورة حياة، عدت لأعيد الدفتر إلى مكانه فوجدتها غارقة في دمائها، قتلت نفسها!».

ارتفعت أصوات أجهزة التنفس الخاصة بزوجي فجأة منذرة، أقبل الطبيب والممرضات مهرولين، استخدم جهاز الصدمات

الكهربية مراراً على صدره دون ردة فعل، غطى رأسه بأسف ودوّن ساعة الوفاة وخرج، وسقطتُ فاقدة الوعي.

مر أسبوعين من وفاة عزيز، دخلت مكتبه الخاص به في البيت لأول مرة بعد فراقه، لم أحزن لفراقه قدر حزني على نفسي، كلما سقطت دموعي حزنا عليه صاح قلبي لائماً ومتألماً من جرحه الذي لم يندمل بعد.

وقعت عيني علي الصندوق الخشبي الموجود بجانب المكتبة، كان عزيز يضع فيه أوراقاً كثيرة مثل شهادة ميلاده وشهادة تخرجه ووثيقة زواجنا وكتابنا المفضل الذي قرأناه معاً أول مرة، وظرف صغير مغلق جيداً، فتحته بحذر وجدت رسالة كتبها بخطه:

"لم أُخفِ عنكِ شيئاً طيلة حياتي يا حبيبتي، فحياتي صفحة بيضاء في متناول يدكِ منذ أن دق قلبي بحبكِ يا حياة، عاهدت الله على صدق محبتك وأوفيت العهد، لم أخفِ سوى سراً واحداً خوفاً من غيرتك واحتراماً لأخلاقيات مزاولة مهنة الطب النفسي، كانت حياتي تسير بصورة طبيعية إلى أن جاء ذلك اليوم الذي كنت أتناول فيه وجبة الغداء في المطعم المجاور للمصحة، كانت إحداهن تجلس في نفس الموعد كل يوم شاردة ولم أكترث لها حتى لاحظت أنها تحملق في وتطيل النظر إلي ثم تدون شيئاً ما في دفترها، كل يوم

تكرر نفس الفعلة حتى أصابني الشك في أمرها، استأذنتها في الجلوس معها ولاحظت شفتاها التي تخثر الدم عليها من كثرة عض أسنانها عليها، لاحظت اضطراباً في حديثها معي، وبصفتي طبيب عرضت عليها أن تزور دكتورة علا في المصحة، رفضت في بادئ الأمر لكنها وافقت حينما أخبرتها أنني سأتولى متابعة حالتها بنفسي فوافقت، قضت قرابة الشهر في المصحة عرفت من خلالها أنها ضحية عنف وتفكك أسري وحالات إحباط متكررة، اكتشفت حقيقة مرضها كاملة، هي تعيش في عالمها الخاص داخلها، حتى العمل الذي أخبرتني أنها ستحصل على ترقية فيه كان من اختلاق عقلها، لم تعمل في تلك الشركة يوما واحداً، تُكَمِّل النقص الذي شوه حياتها بالتخيل، وما زاد الأمر سوءاً أنها تعلقت بي تعلقاً شديداً، تعلق مرضي جعلها تبكي وتنتحب إذا غبت يوماً عن العمل، كانت تستغل الوقت الذي أقضيه أثناء جلستي العلاجية في تدوين مذكراتها كأنها تتشبث بلحظات الوهم متلذذة بها، أمرتني الدكتور علا أن تتولى هي علاجها لأن الأمر ازداد سوءًا وأخبرتها أنني سافرت للخارج في بعثة طبية وذلك ما جعلها تحاول الانتحار.

أقسم لكِ لم أتقرب منها يوماً، كنت أمارس عملي وواجبي نحوها فحسب، سامحيني إن لم أخبرك بذلك من قبل، كتبت تلك

الرسالة لعلها تشفع لي يوماً إن افتضح الأمر.. أقسم لكِ أنني لم أخنك يوماً".

عزيز

سقطت الورقة من يدي، بكيت وملأت الدنيا صراخاً كأنه مات لتوه، ناديته كثيراً لعله يجيب، لعله يعانقني ويهدئ من روعي، لعلني في كابوس سأفيق منه وأجدني بجواره لكنه لم يكن.

تذكرت دفتر ذكرياتها الذي كانت تُغلقه كلما نقرت باب غرفتها، كان ذلك الدفتر ما هو إلا وهم أحسنت صياغته وعاشته كعالم بديل لواقعها المؤلم، للأسف اكتشفت أن نقرتي كانت تفصلها عن الوهم الذي تعيش فيه.

فأحياناً تكون نَقرة هي الفاصلة بين الحقيقة والوهم.

تمت

الحكاية السابعة

حكاية يسر

"يحيى"

كنت أسير بمحاذاة الرصيف هائماً على وجهي، أتذكر أُناسا كانوا أقرب إلينا من حبلِ الوريد بدلتهم الأيام، كانت حبيبتي ولم تعُد!

كنت أكِدُ من أجل توفير المال حتى أستطيع التقدم لخِطبتها فور الانتهاء من دراستي، ظللت هكذا حتى وصلنا للسنة الرابعة، انقطعت أخبارها فسألت إحدى صديقاتها فأخبرتني أنها مشغولة في تجهيزات الزواج، كان وقع الخبر مميت بالنسبة لي، كيف تخلت عني وأنا كنت أتذوق طعم الشقاء عسلاً من أجلها! لماذا لم تخبرني أن هناك آخر انتشل قلبها مني!

كانت والدتي تعلم أن هناك فتاة أسعى كل ذلك السعي حتى أفوز بها، عُدتُ ذلك اليوم مهموماً لا أتخيل كيف ستتأبط ذراع رجل آخر وترتضيه زوجاً!

شعرت والدتي بألمي حينما بكيت أمامها كطفلٍ صغير ولم تكن رأتني في مثل تلك الحالة من قبل، ظلت تفكر كيف تهون عليَ، ضمتني إليها وربتت على كتفي بحنو، قالت:

"يا ولدي، إن الله لم يضعها عليك إلا ليرزقك خيرٍ منها".

لم أقتنع بكلماتها وقتها، هي أم تحاول أن تضمد جرح ابنها فحسب.

أصبت بنوبة اكتئاب فقدت على إثرها عملي، اقترحت والدتي أن أسافر لزيارة بيت الله، انتهيت من دراستي ثم استعددت لرحلة العمرة.

سافرت حاملا جرحي وآلامي متوسلا لله أن يُهدئ قلبي من حبها، أديت العمرة، صرت أخف ثقلاً وكأن الله غسل قلبي وروحي فبرأتُ من حبها وأثلج الله قلبي من نار فراقها.

قطع شرودي رجلٌ كبير السن كان مرافقا لي في غرفتي هو واثنين آخرين، قال متبسماً:

_فيم تفكر يا ولدي؟! أراك شارد الفكر معظم الوقت!

ابتسمت في تودد:

_لا شيء يا والدي، أفكر في مستقبلي وكيف سأدبر أمري بعد أن فقدت عملي.

ربت على كتفي وقال باسما:

_ وكأن الله ساقك إليَّ، أنا أبحث عن شاب أمين يدير لي تجارتي لأنني لم أعد أستطيع القيام بذلك وحدي.

عدت لمصر واستلمت عملي ومرت أربع سنوات استطعت فيها اكتساب خبرة كافية جعلت الحاج محمود يعتمد عليَ بشكل تام خاصة بعد تدهور حالته الصحية، لدرجة أنه لم يعد يستطيع متابعة الدفاتر الخاصة بالعمل واستلام الإيرادات بنفسه.

ذات يوم أتتني إحداهن تمشي على استحياء ألقت عليَ السلام وقالت:

_أنا يُسر ابنة الحاج محمود، أرسلني أبي لأستلم منك الإيراد بدلاً منه لأنه مريض.

رفعت وجهي ناحيتها، أسرتني عينيها ذات اللون البنى الفاتح جعلتني أغرق فيها كأنني سقطت في فنجان قهوتي.

جذبتني بحيائها الذي جعل وجنتيها تتورد بلون حجابها، قمت من مجلسي ورحبت بها ولا أدري أأجلستها على الكرسي أم أجلستها في قلبي!

راجعت الدفاتر ثم سلمتها الإيراد وقلبي معه، ثم شكرتني وغادرت.

كانت تلك اللحظة بمثابة نقطة فاصلة في حياتي، دق قلبي ونفث الأتربة التي كومتها السنون عليه، كأن كل عناء لاقيته في حياتي ذاب مع ابتسامتها.

في اليوم التالي استأذنت الحاج محمود لزيارته، توجهتُ إلى داره لأطلب خطبتها، فرت كلماتي بصعوبة وتلعثمت، ابتسم لي ابتسامته المعهودة ثم قال:

_من ناحيتي أمنتك على مالي وتجارتي وكنت القوي الأمين، لكن هذه ابنتي وقرة عيني، الرأي لها أولا وأخيراً، سأُبلغك الرد في القريب العاجل.

مرت ثلاثة أيام وكأنهن سنوات، لا أدري لماذا تعلقت بها بهذه السرعة، فهي رقيقة للحد الذى يجعلك تذوب داخلك هائماً بها ضائعاً بين جمال عينيها العسلية كأنك تغوص في العسل نفسه وتغرق في حلاوته دون جزع.

قطع شرودي فاتنتي آتية من بعيد مهرولة فأصابني القلق، وقفت أمامي وقصر قامتها جعل رأسها في مقابل موضع قلبي، قالت لاهثة دامعة العينين:

_أبي مريض جدا ولم أستطع التصرف، ساقتني قدمي إليك.

تحركت معها على الفور، وددتُ لو كانت حِلاً لي فأمسحُ الدمع الذي يسيل على وجنتيها ومثل تلك اللؤلؤتين لا يحق لها أن تدمع!

وصلنا إلى دارهم وكنت قد أجريت اتصالا بسيارة إسعاف لتنقلنا إلى المشفى، تم السيطرة على جلطة كادت أن تصيبه بمكروه واستقرت حالته، جلستُ بجانبه أتأمل التجاعيد التي حفرها الزمن على وجهه وجسده الهزيل فأشفقتُ عليه، بدأ الحاج محمود يَفيقُ شيئاً فشيئاً، ابتسم لي وقال بوهن:

_الحمد لله الذى أحياني بعد ما أماتني وإليه النشور.

قلت باستبشار.

_الحمد لله على سلامتك يا والدي.

سألني بحيطة:

_أين ابنتي وزوجتي؟

_عادوا للمنزل ليحضروا بعض الأغراض.

قال بصوت واهن:

_اقترب يا بني، أَود أن أخبرك بشيء.

جلستُ بجانبه مترقباً فقال:

_ابنتي يُسر كانت مخطوبة من قبل.

ابتسمت مطمئناً:

_هذا لن يغير من أمري شيء يا والدي.

قاطعني قائلاً:

_أرجوك اسمعني جيداً يا بني، ابنتي بعد تعلُقها بذلك الشاب طيلة فترة الخطبة عامين تركها قبل الزفاف بشهر من أجل فتاة كان يحبها من قبل، حطم قلب ابنتي وأصيبت بصدمة جعلتها ترفض الزواج برمته.

تنهدتُ قليلاً وكنت أكثر من يشعر بألمها فقد تجرعتُ نفس الكأس وتذوقتُ مرارته من قبل، قلت مُطمئناً:

_لا تقلق يا والدي، أعِدُك أن أصونها.

_إذن فخير البر عاجله، ستعقد عليها فور خروجي من المشفى.

غمرتني الفرحة لكن قطعت فرحتي كلماته حين قال:

_يا يحيى، ستعقِد عليها لأعطي لك الفرصة لتجعلها تختارك بقلبها.

هدأت قليلاً واختفت ابتسامتي شيئا فشيئا:

_أتقصد أنها غير موافقة؟

_ليس بالضبط، لكنها ترفض الارتباط فحسب، ساعدني يا ولدي .

تنهدتُ وشعرت بثقلٍ على كاهلي، كيف سأجعل فتاة متعلقة بغيري تميلُ إليَ وتمنحني قلبها!

_أعِدُك أني سأحاول .

قلتها بيأس وقلبي مُنكسِر.

"يُسْر"

لم أدرِ أن قرار عدم زواجي سيصيب أبي بهذه الوعكة خاصةً بعدما جاء يحيى عدة زيارات ليزداد التعارف بيننا، لم أنكر أنه ذو خلق، طموح، يحافظ على صلواته، لكني ما زلت غير مُرحبة بفكرة الزواج البتة؛ ليس لدي أدنى طاقة احتمال لألم آخر، ولن أستطيع الرفض بسبب مرض أبي، لم أكن لأسامح نفسي لو كان أصابه مكروه بسببي، كان قلبي البكر صادق الحب لخطيبي الأول حتى لو لم يكن موجوداً بحكم عمله في الخارج، كانت تكفي محادثتنا القليلة لأتعلق به، جميع من حولي شعروا بالملل لأنه في كل مرة يعدني بالرجوع لإتمام الزواج يتعلل بحججٍ واهية، فتحدث إليه أبي لتحديد موعد الزواج وتم تحديده، حتى قبل الموعد بشهر انقطعت اتصالاته، جاءتني إحدى قريباته لتسترد الذهب الذي أهداني به، لم يتردد أبي لحظة وجمع كل شيء يخصه وسلمه لها ليقطع كل السبل بيننا، بعد فترة وجيزة علمت أنه قام بخطبة جارتهم التي أخبرني يوما أنه كان يحبها منذ الصغر ولم يجمع بينهم النصيب، الغريب أنه أقسم لي أنه أحبني بصدق لكنه لا يعرف للصدق سبيلا، كرهت الزواج وكرهت الرجال من بني جنسه، وحينما جاء يحيى ألح أبي أن أعطيه الفرصة لكني رفضت، حتما سيغادر يوما دون وداع، حتماً سيخبرني

أن أسوأ خصالي هي براءتي التي تجعلني أبدو كطفلة لا كأنثى مثيرة، حتما سيضايقه خجلي حينما يُغدِق عليَ بكلمات الحب.

لست مستعدة لجرح جديد لأن القديم لم يندمل بعد! سأضطر للقبول حتى لا يمرض أبي كالمرة السابقة ولا يهم ماذا أريد.

دعاني أبي للجلوس معه، كنت أعلم الأمر الذي يود أن يُحدثني فيه فأصغيتُ إليه بلا روح فقال:

_يا بنيتي، أعطيه فرصة واحدة سيخطبك لمدة ستة أشهر فقط، لن أطلب منكِ أن تحبيه، فقط ادرسي خصاله وبعدها لكِ مطلق الحرية بإتمام الزواج أو الرفض.

_وما ذنبه أن يكون موضع اختياري؟

_لا شأن لكِ بذلك، هو متمسك بكِ حتى لو بعدها تركتيه.

_حسنا يا أبي.. أنا طوع بنانك.

ابتسم أبي وقال بقليل من القلق:

_لكنه له شرط واحد، أن يعقد عليكِ.

ازدردت ريقي غير مصدقة وقلت باندفاع:

_وإذا تركته سأكون مطلقة وأصبح ضحية فكرة كهذه!

_كلاكما ضحية يا ابنتي، هذه بتلك.

اضطررت للقبول رغماً عني لكن تلك القصة ستنتهي بالتأكيد، لا يعقل أن يستطيع تحريك الحجر الراقد في قلبي.

"يحيى"

وقفت أمام المرآة أحاول ربط رابطة العنق لكني فشلت كعادتي، توالت ضحكات أمي القادمة من ناحية باب غرفتي، قالت بحنو:

_كبرت يا يحيى وما زلت لا تستطيع ربط رابطة عنقك!

ابتسمت وأنا أرى صورتي المنعكسة في عينها اللامعة ببريق كان قد انطفأ منذ وفاة أبي، لا أراني جميلاً كامل الأوصاف هكذا إلا في عين أمي! مهما كانت عيوبي فهي تحتملها. ورغم ذلك دوماً تخبرني أنني أحسن ابن على الإطلاق، أفقت من تحليقي في سماء عينيها الزرقاء على يدها وهي تضم رابطة عنقي بهدوء، لاحظت دمعة تسعى للنزول على وجهها المبتسم فبادرت بمسحها فقالت:

_لا تمسح دموع الفرح يا بُني، فإنها باردة تُطفئ نار الحزن الذي احتملته سنواتٍ طوال.

عانقتها وانحنيت لأُقبل يدها الدافئة ثم سحبتها لتتأبط ذراعي، توجهنا ناحية دار الحاج محمود.

طرقتُ الباب ففتح الحاج محمود، عانقني بحرارة ورحب بوالدتي، خرجت يسر تخطو خطوات مُتأنية بفستانها الزهري الذي جعلها فاتنة، رحبت بوالدتي وجلست بجانبها، تلاقت الأعين للحظات ثم سرعان ما تنافرت عينيها عني، كانت تلك النظرة تكفي لأعي أنها غير سعيدة، لاحظت والدتي -وقد كانت تعلم بالأمر- فحاولت تغيير مجرى الأمور بخفة ظلها مما جعل شبح ابتسامة يظهر علي شفتيّ يسر فأشرق وجهها.

وصل المأذون وشرع في إجراءات العقد، كانت يسر تحاول التظاهر بالفرحة لكني كنت أعلم أنها تجيد تمثيلها، حتى رعشة يدها وهي توقع على العقد جعلت قلبي يرتجف خوفاً من التعلق بمن ليس له في نهاية الأمر، كلانا ليس لديه احتمال لأي فراق مرة أخرى.

انتهت مراسم العقد، والآن أصبحت لا أخشى النظر إليها، عيناي ودعت غضها عنها، فهي حبيبتي وصديقتي، لم أجرب أن يكون لي صديقة من قبل، لماذا لا أجرب أن أخرج معها لنشاهد مباريات كرة القدم المفضلة لي معاً، ترافقني في اختيار ملابسي وأشاركها هواياتها أيضاً.

"بارك الله لكما وبارك عليكما وجمع بينكما في خير"

قالها الحاج محمود وهو يربت على كتفينا في آنٍ واحد، مددت يدي لأسلم عليها وقَبَّلتُ جبينها ثم قلت:

_مبارك علينا يا غاليتي.

تضرجت وجنتيها حُمرة خجلاً ثم ابتسمت ابتسامة مقتضبة وقامت مسرعة إلى غرفتها.

لم أذق طعم النوم في تلك الليلة، ظللت أتقلب يمنى ويسرى متخبط الفكر، كان الوقت يتجاوز الثانية صباحاً، مسكتُ هاتفي ثم اتصلت، بها، جاءني صوتها الناعس قليلاً أو ربما الباكي ملقياً السلام، قلت مداعبا:

_وعليكِ السلام حبيبتي، أول شيء ممنوع الإجابة علي هاتفك في وقت متأخر، خاصةً لو كان صوتكِ ناعساً هكذا.

قالت بحدة:

_ من أنت؟

ابتسمت بهدوء:

_أنا يحيى.

ارتبكت قليلاً:

_من أين أتيت برقم هاتفي؟

_من والدك، إذا كان الامر يزعجك فسأغلق الخط.

عم الصمت قليلا ثم قالت باستسلام:

_لا، هذا حقك.

_عفواً، إذا كنتِ ستحدثينني من أجل الحقوق، فأنا متنازل عن حقي، أما إن كنتِ تودين التعرف عليّ ففضلاً قومي وأعدي فنجان من القهوة لتستطيعي السهر.

ضحكت بخفوت ثم قالت:

_ لا داعي، أنا متيقظة.

قلت باطمئنان:

_لن أسألكِ عن أي شيءٍ حدث اليوم لأني أشعر بكِ يا يُسر، فقط أعطيني فرصة.

قاطعتني بصوت مرتفع قليلا

"نعم يا أبي، أنا آتية في الحال".

ثم وجهت حديثها لي:

_معذرة أبي يناديني وسأضطر لغلق الخط.

"يُسْر"

لم يناديني أبي لكنى افتعلتها من أجل الفرار من الحديث معه، حقاً أنا لا أود الارتباط بأي رجل في الكون، أعي أنني ظلمته ولا أدري ما آخر تلك اللعبة ومن سيكون الخاسر فيها، لكني على أي حال سأصبر حتى تمر الستة أشهر وسأنسحب بهدوء، سامحني يا يحيى.

سامحني لأني لا أستطيع إجبار قلبي على أن يلين لحبك، ربما لا يسعك قلبي المجروح، بالتأكيد لن تعيش على بقايا قلب!

"يحيى"

مر قرابة الشهرين بعد العقد كانت الأيام فيها بطيئة، فقد كنت أسرق الابتسامة منها سراً فإذا رأتني أنظر إليها تبدل حالها لخوف مستتر، لم يستطع كسر قلقها الدائم مني سوى والدتي التي تقربت إليها كثيراً، استطاعت كسب ودها حتى أنني عدت لمنزلي ذات يوم بعد العمل فتحت باب المنزل وكانت الأنوار مطفأة فتعجبت من الأمر فمددت يدي لأفتح مقبس النور وجدت والدتي ويُسر ووالدتها يقفون خلف المنضدة وأمامهم كعكة، نسيت ذكرى ميلادي التي اعتادت والدتي الاحتفال بها وحدنا ولكن في هذا العام

كان الاحتفال مختلف، تعمدت والدتي ووالدتها ترك الفرصة لنا لنتحدث معاً وقمن لإعداد الشاي، نظرتُ إليها مطولاً ثم استحالت النظرة إلي يائسة، كنت أعي تماما أنها ليست معي بقلبها، لم تنطق بكلمة حتى أنني شعرت أن وجودي عبء عليها فاستأذنتها لأبدل ملابسي، كدتُ أتحرك لكنها قاطعتني:

_انتظر يا يحيى!

شعرت بنغزٍ خفيف في قلبي إثر سماع اسمي بين شفتيها، توقفت ثم نظرت لها بود فقالت بارتباك:

_لقد أحضرت لك هدية، أتمنى لو تحظى بإعجابك.

ابتسمت بدوري وقلت بامتنان:

_لستِ بحاجة لإحضار هدية، وجودِك وحده أعظم هدية.

خجلت من كلماتي كعادتها وكان أكثر ما يجذبني إليها حياؤها، لكنها عادت لصمتها مرة أخرى.

اعتدت ذلك منها ولكني لم أفقد الامل، كانت تتملص من اتصالاتي، أيامٍ تتوالى أُغدِق عليها بفيض مشاعري ولا أرى إلا تغيرًا بسيط، مما جعلني أشعر باليأس لأنني حقاً أحببتها بصدق.

"يُسر"

لا أدري لماذا بدأت صخور قلبي الراكد في التحرك ناحيته؛ وإن منها ما يتشقق فيخرج منه الحب أنهاراً رغماً عني، حاولت السيطرة على قلبي إلا أنه استطاع أن يعلقني به حتى لو تظاهرت بغير ذلك، لكني على أي حال أنتظر انتهاء الستة أشهر ليعود كل منا إلى حياته لكي لا يتحطم قلبي مرة اخرى.

لن أنسى له حسن صنيعه معي فقد صبرَ علي كثيرا، لن أنسى تلك الليلة الممطرة التي جاء فيها تحت شُرفة غرفتي ليعطيني (العسلية) التي أخبرته أنني أحبها غارقة في حبات السمسم.

لن أنسى حينما كان يهاتفني ليستشيرني في ألوان ملابسه ليختارها باللون المفضل لي، وكيف أنسى الأيام التي كنت أستيقظ فيها على رائحة باقات الورد الصباحية منه!

"يحيى"

كنت جالساً على مكتبي أراجع الدفاتر المتكومة أمامي حينما دخلت إحداهن فلم ألتفت لها لكني سمعت صدى صوتها وكأنه يتردد في بئرٍ عميق تنادي:

_يحيى!

رفعت وجهي ناحيتها باندهاش، إنها حبيبتي الأولى! أو من ظننت يوماً أنى أحببتها، قالت بنبرة نادمة:

_سامحني فقد ظلمتك.

تعجبتُ لأمرها ثم هززت رأسي بعدم فهم:

_عفواً، لم أفهم!

قالت بحزن:

_ترددت قبل أن آتي إليك لكني حقا اشتقت لك.

قلت بحزم:

_معذرة، لا يحق لكِ التحدث معي بهذه الطريقة، تفضلي بالانصراف.

قالت متوسلة:

_عاقبني الله بتركك فتركني زوجي، بحثت عنك كثيراً، أرجوك سامحني فأنا أحبك.

قلت وأنا أستشيط غضباً:

من فضلك انصرفي من هنا، أنا رجل متزوج وأعشق زوجتي، لا مكان لكِ في قلبي.

أشرتُ بيدي ناحية الباب لتنصرف فمسكت يدي لتستجدي عطفي، لكن الأقدار وقتئذ ساقت ليَ حبيبتي يُسر لترى يدها ممسكة بي.

نظرت لي يُسر بعين منكسرة وغادرت سريعا فاتبعتها مسرعا، حاولت شرح ما حدث لكن دموعها حسمت الموقف، قالت بشفاهٍ مرتعشة:

_طلقني.

"يحيى"

هل كُتِبَ عليّ أن أحيا بمفردي؟ لماذا في كل مرة يركنُ قلبي إلى قلبٍ يهجرني مَلِيًّا! فراق يُسْر كان برهانٌ لقلبي أنه لم يعشق سواها، عشقتُ ابتسامتها التي كانت تجودُ بها عليّ من آنٍ لآخر، أنا لم أخونها حتى في خيالي!

قلبي كان بمثابة الجسر القوي الذي يسعى لتمر عليه بسلام، لكنها لم تنجُ ولا أنا، كلانا موجوع، ربما عليها أن تتقبل عذري وربما علي أن أحفظ كرامتي قليلا.

وهل من كرامة في الحب!

الحب لا يعترف بالعلاقات الهشة، مع أقل دفعة تسقط!

الحب يعني ثقة، أمان، ترابط، لكنها لم تكن تحب!

"يسر"

نعم، طلبتُ الطلاق، ما زالت نظراته المتوسلة تُمزقني وتؤرقني ليلاً، لكني اكتشفت أني بالنسبة له أغلى من نفسه، حاول أن يبرر ما حدث لأتراجع عن قراري لكني ذبحته بإلحاحي فوافق من أجلي، انتقمت من خطيبي الأول فيه بل انتقمت من كل رجال العالم فيه، أنا حقا لا أستحقه.

أعلمُ جيداً أني انتهازية لأني اتخذتها فرصة لأحظى بحريتي، لكني الآن متعبة بدونه حقا! اكتشفت أني أشتاق إليه خلسة، تذكرت هذه الفتاة التي اتجهت ناحية المعرض، أخذني فضولي أن أتبعها لأرى كيف يتعامل يحيى مع زبائنهُ من النساء، تابعت حديثهما من مكان قريب، سمعته جيداً وهو يقولها معلناً "أنا متزوج وأعشق زوجتي" تسارعت دقات قلبي ودموعي إلى وجنتي فرحاً، لكن عقلي تصرف بحماقة، تركته خوفا من أن يتركني فتركته وأنا متعلقة به!

"يحيى"

هوى الخبر على قلبي كالصاعِقة، مات والدها، مات الرجل الذي عوضني عن غياب أبي ولو قليلا، كان نِعم السند في عز ضعفي.

ذهبت إليها، وددت لو أُعانقها وأُكفكف دموعها، تمنيت لو كانت زوجتي لأشدد أزرها وتتكئ عليّ في محنتها، كانت منكسرة بما يكفي لفراق أبيها، عزائي الوحيد أن والدتي لم تتركها يوماً.

مرت الشهور، تأتي كعادتها لتستلم الإيرادات ثم تغادر مسرعة، تتحاشى النظر في عيني اللائمة، كنت أرفق بها حتى في لومي فأزيح نظراتي عنها كي لا تتألم.

مر قرابة عام وجدتها قادمة كعادتها لكنها مختلفة اليوم، كان وجهها مشرق بابتسامة اشتقت لها وكأني كنت أعيش أعوام من الخريف، جلست أمامي وقالت بوجهٍ يكسوه حمرة الخجل:

_لقد تعلمت الدرس جيداً يا يحيى، شكراً لك حُسن صنيعك

قلت بترقب:

_ أي درس؟

أخفضت رأسها ثم قالت:

_تعلمتُ أنك هدية، وأن مثلك لا يمكن العيش بدونه.

انفرجت أساريري غير مُصدق وقلت:

_أتقصدين أنكِ...

قاطعتني: نعم، اشتقتُ إلى العسلية بحبات السمسم، أنا فقط عُدت من أجلها.

ضحكت ولمعت عيوني:

_إذن عودي من حيث أتيتِ، لا نبيعُ هنا عسلية.

فقالت بخجل:

_لكني أحبك.

استكنتُ قليلاً ثم سألتها:

_ماذا قلتِ..؟

أجابت بعين لامعة:

_أحبك أكثر من العسلية.

"يسر"

كان لابد من العودة، فإني حقاً تألمت كثيراً لفراقه، حتما سيفرح أبي بعودتي إلى يحيى، أنا على يقين أني لن أتركه أبدا وكأن الله جعلنا نفترق لأختاره بنفسي دون إلحاح من والدي.

اليوم جاء المأذون ليعقد من جديد، انتهت مراسم العقد وقام يحيى من مجلسه، سلم عليَ وقَبَّل رأسي فسمعتُ صوت أبي يتردد في ذهني بفرحة "بارك الله لكما وبارك عليكما وجمع بينكما في خير"، سرت قشعريرة داخلي وكأن أبي سعيد بذلك حقاً .

تمت

الحكاية السابعة

فـــوضـــى

فوضى تحيط بالطاولة حوله وأصابعه ملطخة بدمائها، انتهى من آخر غرزة في قفصها الصدري في موضع القلب مباشرة، جمع أدواته وضمد جرحها بعناية ثم نظر في عينيها الناعستين وقال:

«سامحيني، لم أقصد إيلامك»

لم أقصد!

من العبث أن تأتي بمِشرط صدئ لتفتح به جرح عميق ظنًا منك أنك تُداوي لكنك تؤلم، تُمَزِّق عروقها فتسيل دمائها ثم تتدارك الموقف فتحيك الجرح بخيوط باخسة!

ثم تخبرها بهمس...

"آسف، لم أقصد"

فتحت عينيها بوهن، تأملت الغرفة بخوف وترقب، انتبهت لوجوده فسألته:

_أين أنا؟

•في قلبي.

_ماذا حل بي؟

•أصابكِ سهم فجرح قلبك.

_ومن الرامي؟

أجاب متلعثمًا:

•أحدهم.

_كيف وقد أخبرتني منذ قليل أنني بقلبك!

أشاح بوجهه بعيدا

اعتادت إخفاء حزنها بين طيات ابتسامتها ببراعة، يظن الآخرون بها أنها مطمئنة، سعيدة، هادئة!

كلها كلمات عانقتها شفاههم ظنًا!

أما الحقيقة صماء، عاجزة عن البوح مهما حاولت التفوه!

تخرج الحروف مبعثرة، هائجة، مشتتة لا تتجاوز حدود العقل.

براكين تثور وبحار تهيج وصراخ ونحيب دون فائدة!

ستظل حبيسة النفس محكمة القيد، وتظل الابتسامة الهادئة المتقنة ترسم لوحة وجهها بعناية..

كررت سؤالها فقال:

•أفلتّك، ولم أقصد ذلك.

تحسست موضع الألم وقالت:

_إنه يؤلم لأن الرامي أصاب موضع القلب مباشرةً، كأنما يحفظني عن ظهر قلب!

الرامي يعلم جيدا ما يؤلمني

وما يجعل أنفاسي تتوقف..

الرامي ليس بغريب..

الرامي أصابني ثم قال لم أقصد!

الحكاية الثامنة

الغرفة الخاوية

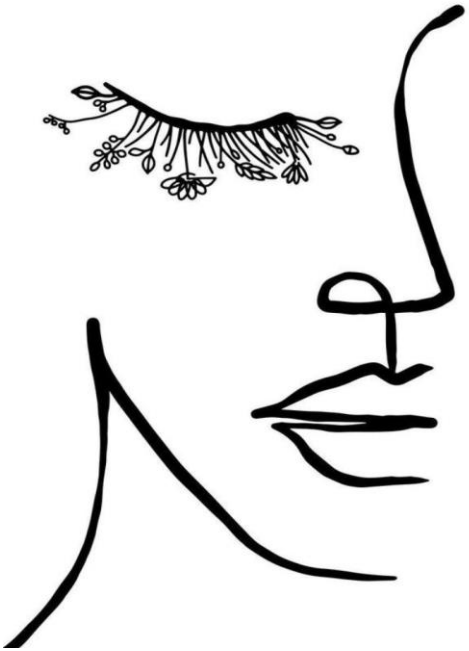

باكرًا أعددت حقائبي أنا وزوجي، أغلقنا شقتنا الجديدة التي لم نبيت فيها سوى ليلتين، عزمنا الأمر على قضاء شهر العسل في شرم الشيخ، يقولون أن كل ما يحدث في أول عام من الزواج لن يتكرر في السنوات القادمة لذا فقررنا السفر في جولة سياحية، لا أعلم السبب؛ لكن الكل يؤكد ذلك والأسطورة تقول أنك لابد أن تتعلم من نصائح السابقين.

قطعنا طريق شاق طويل ننام ونفيق ولا نرى سوى جبال صفراء تسابق الريح بجوار النافذة المطلة عليها، الطريق موحش في الغروب كأنك تتعلق ببصيص النور المتبقي ليبث فيك الطمأنينة، محاولة إخماد رعدة سرت في جسدي رغم ارتفاع درجة الحرارة، وصلنا إلى الفندق الذي حجزناه لمدة أربعة أيام ثم سننتقل إلى فندق غيره في بلد سياحية أخرى.

كانت عباءة الليل قد سترت السماء بلونها الأسود، ليلة مظلمة لا يوجد بها قمر نسترشد بنوره عن الاتجاهات.

عبرنا باحة الفندق الفسيحة، استقبلنا رجل هزيل الجسد يرتدي عوينات طبية من النوع السميك، وضع الحقائب على الترولي ثم اتجه ناحية موظف الاستقبال الذي أبدى ابتسامة مصطنعة يرسمها لكل زائر جديد، بجواره فتاة حسناء من النوع الفضولي الذي

يتفحص الأمور خلسة دون الإفصاح عن ذلك بنظرات متتالية ثاقبة، خبيثة.

«ها هو مفتاح غرفتكم، الغرفة 313»

قالها موظف الاستقبال بنفس الابتسامة الآلية اتجهنا نحو الغرفة برفقة العامل الذي يحمل الحقائب.

فتح العامل الباب الذي يفصلنا عن عالم الأحلام الوردية وأيام وليالٍ تمنيناها معا، أدخل الحقائب وبالطبع لم ينسى زوجي دس البقشيش في جيب ذلك المسكين الذي أكل الشقاء من جسده.

لماذا ينتابنا الخوف لأول وهلة عند المبيت في مكان جديد لم تعتد النوم فيه، أصابتني رجفة بفعل تيارات الهواء الذي ترسلها موجات البحر عبر النافذة.

جلست على الكرسي المجاور للمرآة التي عكست صورة السرير وفوقه صورة لامرأة تغزل خيوطا على النول في حديقة خضراء يجاورها مباشرة باب دورة المياه.

ما هذا الصوت؟! هل انغلق الباب فجأة أم أنني أهذي!

التفتت للخلف فوجد الباب مفتوحًا، بحثت عن زوجي فإذا به يحاول وضع الحقائب بجوار خزانة الملابس.

لا ينكر أحدنا التخيلات التي تمر علينا فور حلول الليل في مكان غريب عنك لم تعتد المبيت فيه.

مثل هل قتل أحدهم في تلك الغرفة ذات مرة؟ هل تلطخ غطاء السرير بالدماء يوما؟ ربما دماء زوجة أو صديقة أو حتى عامل بالفندق وربما زوج! هل مر عليها أحد السحرة فجعلها مسكونة بالأشباح؟ هل حُضِّرت فيها أرواحًا؟! هل ماتت فيها قطة تعلقت بأحد أسوارها من قبل؟ هل زارها كلب يعوي يسيل لعابه فوق الأساس؟

وربما كل تلك الأرواح تتراقص حولي الآن لكني لم أرها، أو أراها لكن العقل البشري يحاول خلق الطمأنينة والتنائي عن الخوف حتى لا يجن!

إنني أراهم بوضوح الآن، قابعون خلف صورتي في المرآة، يشكلون حولي دائرة لكني اعتدت الهروب منهم على أية حال!

أهرب من مخاوفي بالسكوت عنها، أكتفي بجلسة القرفصاء ثم أُخبئ رأسي بين ذراعي أحاول التشبث ببقايا ذكريات عابرة زرعت الاطمئنان في روحي يوما؛ بينما يغرس الخوف براثنه في روحي بعناية، أتذكر ذلك اليوم الذي رأيت فيه زوج أمي ينهال عليها بضربات قاسية سالت دمائها ولطخت الفراش الأبيض على سريرها، نهرها

بقوته وبادلته بضعفها فازداد قسوة! ومع كل مرة ينهال عليها بسياط القسوة؛ أفقد سيطرتي على نفسي فيسيل البول مني ليبتل فستاني الوردي الذي اشتراه أبي لي في العيد، وبعد أن تفرغ أمي ضعفها أمام زوجها كالقيء الكريه الرائحة، تصب عليَّ كل قوتها التي ادخرتها لي، ترى فستاني المُبتل فتصرخ في وجهي بغضب ثم تركلني بقدميها، تلعن اليوم الذي رأتني فيه واليوم الذي لاقت أبي فيه واليوم الذي ولدت فيه، ثم تبتعد عني فأسمع غمغمتها وهي تقول:

"ليتكِ تعودين إلى دار أبيكِ"

أفقت من شرودي على لمسة حانية من زوجي يخبرني أن الطعام جاهز، جلست على الطاولة الصغيرة المقابلة للنافذة وفور جلوسي صدر صوت ماء اندفع بشدة في دورة المياه، فزع زوجي إلى حيث الصوت فعالج الأمر ثم عاد وأخبرني أنه ربما اشتدت المياه فجأة فانفتح الصنبور، لم أقتنع بكلامه؛ دائما يحدث ذلك في الأماكن المغلقة، أصوات لا تفسير لها، صوت خرير الماء أو ربما تدفقه رغم جفاف الأرضيات!

حتى تراقص الضوء في المصباح لا يعني إلا ضعف في الكهرباء، وربما تأبى الغرفة أن تضاء بالنور لأنها اعتادت الظلام في الأيام الخالية!

وما يدريك؛ لعل الغرفة تتنفس في الظلام، ويسكنها كارهي النور!

الآن حان وقت النوم، ليس بفعل الإرهاق، إنما هو استجابة للهروب الذي اعتدته منذ الصغر، الهروب من الخوف، كيف يتلذذ البعض بقصص الرعب! وهل في الرعب لذة! كيف يتلذذون بمتابعة أفلام السنيما التي تبث الذعر في النفس! وأي خوف يساوي خوفي من الاستيقاظ مرة أخرى لمواجهة أقسى حياة يمكن أن يحياها طفل في سني! أب متزوج من أخرى تكرهني وترفض وجودي رغم تمسك أبي بي! وأم متزوجة من آخر يمقتني ويسُبني بأبي كلما رآني! ناهيك عن العنف الجسدي الذي أتعرض له من آن لآخر، ألم الروح أشد وطأة؛ يخمد أوجاعي ويطغي على جروحي الجسدية، الآن أستسلم للنوم، المهرب الوحيد من الواقع المؤلم، تتقاذفني الكوابيس فأغرق في ذكريات الطفولة الضائعة بين أم عنيدة وأب متهور، يلقي كلمة طالق كأنما قال صباح الخير، وما ذنبي في كل تلك النزاعات، كأنهم يحاولون نزعي من الحياة ومن أرواحهم وربما اقتلعوا روحي في كل مرة انتقلت فيها بين بيوتهم الجديدة بينما روحي عالقة بمنزلنا القديم الذي جمعنا يوما!

ما هذا الذي أرى؟ امرأة بشعر أسود طويل تقف هناك عند الشرفة! لستُ نائمة، ولا أظنه كابوسًا، إنها تقف هناك حقا خلف الستائر البيضاء.

تتسارع نبضاتي ويرتفع صوت دقات قلبي، أخشى أن تسمعه فتقتلني، وإن لم تقتلني خنقًا؛ فحتما ستقتلني خوفًا.

لماذا يتشوه كل ما هو جميل كتلك الستائر البيضاء!

كل ما هو جميل أبيض كقلب زوجي! ابتل فراشي وملابسي ككل ليلة، لا بأس سأقوم بتبديلها دون أن يعلم أحد بذلك.

قمت من مرقدي وبدلت ملابسي المبتلة قبل أن يستيقظ زوجي من نومه، لكنه ليس بجواري! ربما يتجول مع صديقه في الردهة، لم يكن لمثلي أصدقاء يومًا، ومن يصادق فتاة متذبذبة بين أهل أبيها وأهل أمها تنتقل في كل بلد مرة! لا تشعر بالانتماء إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء!

انقشع الظلام شيئا فشيئا، أصبحت ستائر غرفتي بيضاء لا وجود لتلك المرأة التي أخافتني، إنها تشبه أمي كثيرًا، تطمئن عليّ من بعيد ولا تُكلف نفسها عناء معانقتي أو احتوائي أو حتى التخفيف عني، تتأفف من ابتلال ملابسي كل يوم، لن ألومها، فمن يعانق فتاة في العشرين من عمرها تفوح منها رائحة البول الكريهة كل ليلة؟!

زوجي، وحده فعل!

لم يتأفف مني لحظة، لكنه أتى بي إلى تلك الغرفة الخاوية وغادر، أراه من وقت لآخر يصحبني في نزهة في حديقة الفندق، الآن أسمع رتابة قطرات الماء التي تتفلت من الصنبور، يجب أن يقوم عمال الفندق بإصلاحه.

"كل شيء تالف لابد له من معالجة وإصلاح"

كما قال زوجي يوما، لا تسير الحياة على وتيرة واحدة، تقسو وتشتد لكن يأتي العوض الجميل، فإذا جاء؛ أصلَح كل ما تم إفساده، حتى لو كانت روح بشرية مهشمة ضعيفة، ربما تلتئم جروحها وتغدو أفضل من سابق عهدها.

دق الباب ثم دخلت امرأة بدينة يزعجني صوت تنفسها العالي لكن لا بأس فهي طيبة القلب، أعدت فطوري وحاولت إطعامي، بدلت فراشي المتسخ وجمعت ملابسي المبتلة في صندوق ثم أخذت بيدي إلى حديقة الفندق.

جلست على مقعد خشبي أمام شجرة طالت فروعها واشتد ساقها، لابد أنها غُرِست في تربة صالحة للزراعة فأنبتت واشتد عودها، خلفها مقاعد كثير تشبه قاعة المحكمة.

أراهم جميعا أمامي الآن، جالسون خلف القضبان، وأنا القاضي، ها هو أبي وبجواره زوجته، وها هي أمي وزوجها وجدتي وجدي الذين لم يتقبلاني يوما برائحتي الكريهة، وهذا زوجي وابن عمي الذي أحبني منذ الصغر، لم أستطع مبادلته ذاك الشعور لأني بروحٍ هشة ضعيفة، أخشى أن يرى ضعفي فينهال على جسدي ضربًا كما فعل زوج أمي.

جلسوا جميعا في ترقب بوجوه واجمة، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة، وأي ذلة! ابنة ضائعة بين جدران غرفة خاوية لا أرى فيها إلا مخاوفي، مخاوفي التي خلقوها داخلي فتجسدت حولي، الحكم بيدي اليوم، لا هوادة في عدل، فليخرج زوجي من القاعة من فضلكم يا حُراس، أحكموا غلق الباب علينا.

أما الآن..

فإعدام..

إعدام جماعي حرقا بالنار، أما أنا فسأكون وقودكم الذي لا ينطفئ فيحرق أجسادكم وأرواحكم، ستبولون على أنفسكم ألف مرة حتى تشربوا من بولكم، وتتجرعون النار في كؤوس القسوة، فلتشربوا جميعا دون توقف، هنيئًا لكم ما حصدتم، هناك قداحة قديمة ملقاة بجوار الشجرة، يبدو أنها سقطت من الرجل الهزيل الذي حمل

حقائبي، فقد كان يدخن وأطفأ سجائره فور رؤيتي قادمة من بعيد، شكرا لك على حسن صنيعك، أصدرت القداحة شرر لا بأس به، سأبدأ بنفسي، لا أود سماع صرخاتكم، كفوا عن النواح، فقد صرخت فيكم مرارا دون جدوى، الآن اشتعلت النار في أكمامي، نار بردا وسلاما عليّ، حامية ستذوب لها جلودكم وقلوبكم، لعلكم تشعرون، أم على قلوبكم أقفالها!

المشهد هزلي الآن، الجناة يشق صراخهم أذني، المرأة ذات الشعر الطويل الأسود، تصرخ باكية تستغيث، امكثي في النار للأبد فتارة كنت أرى فيكِ وجه أمي وتارة أخرى أرى وجه زوجة أبي، وإن حلت لي شفاعة لن أرحمكِ ما حييت.

ربما أكتفي بهذا القدر من العذاب لأبي، فقد حاول انقاذي لكن محاولاته فقيرة ضعيفة.

اشتعلت النار فالتف حولي مجموعة من النزلاء بالفندق لا أعلم لم يرتدون معاطف بيضاء! سادت حالة من الهياج والفزع، حاولوا إطفاء ذراعي بسرعة في مقابل محاولات مني لإنقاذ خطتي في حرق الجُناة. وحرق نفسي وكل ما يتعلق بالماضي.

في نفس الغرفة الخاوية إلا من خزانة ملابس وسرير يكفي لفرد واحد، جلست أتأمل يدي المحترقة، لا بأس ستندمل يوما

وتلتئم جروحها وتعود لتنتقم، صوت خرير الماء يفتك برأسي، أتذكر أيام الشتاء التي أجبرتني فيها أمي على الاستحمام بالماء البارد عقابا على فعلتي الذميمة، ونست أنها من تبول على روحي كل يوم وهي ترى زوجها يضربني بقسوة وعنف.

أخيرا طرق زوجي الباب، جلس بجواري يتأمل ذراعي المحترق بحزن، عانقني بحرارة بينما لم يتحرك لي ساكن، مشاعري كالجليد، لا أعلم السبب؛ ربما فاقد الشيء لا يعطيه!

عناقه الدافئ ذكرني بأول يوم لي في الروضة، حينما عانقني أبي وقال بنبرة دافئة:

«هيا يا عزيزتي، اذهبي إلى فصلك».

قلت له بخوف:

«أخشى ذلك المكان بدونك أنت وأمي، وأخشى أكثر أن تنساني ولا تعودا!».

ربت على كتفي مهونا:

«الآباء لا ينسون أطفالهم يا عزيزتي»

لكنهم نسوا!

لأول مرة أبكي بين ذراعي زوجي، وعلى الأحرى؛ لأول مرة أجد ذراعين تحتويان آلامي!

مرت أيام عديدة في ذلك الفندق وربما أشهر، لم أشعر بالوقت، يتوالى على غرفتي نُزلاء ربما من بينهم أطباء يرتدون السماعات الطبية، يقيسون مستوى الضغط ويقدموا لي رعاية طبية، لم أقضِ شهر العسل بعد! تعلل زوجي بانشغاله بعمله على الرغم من وجوده الدائم بجواري! إلا أنني أشعر بارتياح أكثر وخاصة بعدما قلَّت عدد المرات التي تبتل فيها ملابسي، تعرفت على بعض النُزلاء أثناء اجتماعات ينظمها الفندق ليُلقي كل منا ما في جعبته، نبكي، نضحك، نتحدث عن ذكريات مؤلمة.

تحسنت كثيرا حتى أنني لم أعُد أرى تلك المرأة المخيفة خلف الستائر، اختفى صوت خرير الماء الذي كان يؤرقني، أو ربما قاموا بإصلاح الصنبور.

في هذه الفترة زارني أبي كثيرا، وكلما زارني بكى واعتذر على تقصيره ناحيتي!

حتى أمي قامت بزيارتي ورغم اعتيادي قسوتها ومشاعرها الباردة تجاهي؛ إلا أنها اختلفت بعض الشيء، لأول مرة أرى انعكاس صورتي في عينيها! ربما بسبب دموعها التي تدور في عينيها ثم تُحلق على خديها متحررة.

مساءً جلس زوجي بجواري أمام الشرفة بعدما أعد كوبين من الشاي، قال بهدوء وعلى وجهه ابتسامة عريضة:

«يمكننا الآن الخروج لقضاء شهر العسل»

قلت بمكر مصطنع:

«ولمَ وقد قضيناه هُنا؟!»

ابتسم بدوره وقال:

«إذن فلنتجه لبلدٍ آخر لنصنع ذكرياتنا معا»

الآن أفكر.. أعيش، أحب وأتلقى اهتمام!

الآن أنا موجودة، يحتاجني أحدهم، يهتم لأمري، يحيا بي!

الآن أنا بخير..

تمت

الحكاية التاسعة

شمـــــوع المـــــوت

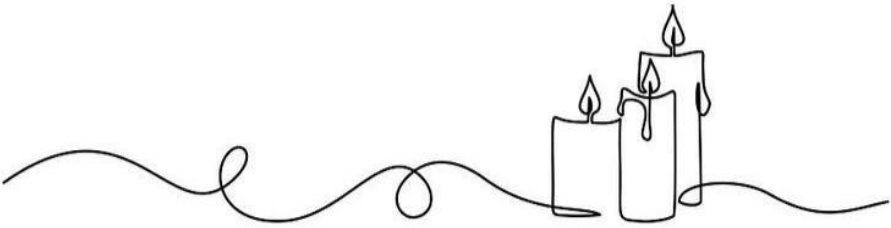

اليوم انتقلت إلى منزلنا الجديد في حي الزمالك، الأشجار العالية التي تعانق المنازل بين أغصانها، تحجب عنها جزءًا من ضوء الشمس، بعد يوم طويل انشغلت فيه بمساعدة والديّ في ترتيب المنزل وتنسيق غرفتي، لاحظت في النافذة المقابلة لشرفة غرفتي طفل لم يتجاوز التسع سنوات منهمك في تلوين لوحة مُلقاة أمامه على الأرض، ظل على وضعيته حتى شارفت الشمس على الغروب، بدأ الليل الحالك يلقي بسحابته السوداء، ليل ديسمبر الذي يطول ويكسوه الهدوء والرتابة إلا من بضع خطوات في الشارع تُسرع من أجل الاختباء من زخات المطر، صاحت الرياح وصفعت زجاج شرفتي فانفتح على مصراعيه، دخلت لأجد الطفل ما زال عاكفا على لوحته دون حراك، سرت رعدة في عروقي لا أدري إن كان من شدة البرودة أم من إحساس الخوف الذي تسرب

إلى نفسي من هيئة الطفل، دققت النظر أكثر لأتبين معالم الغرفة حوله واندهشت أنه يرسم في الظلام كأنه يرى جيدا دون الحاجة لمصابيح الإنارة، فتحت هاتفي وبدأت في تقريب الصورة بكاميرا الهاتف حتى تبينت تفاصيل الغرفة، انعكس ضوء الفلاش فجأة على لوحة الطفل _دون قصدٍ مني_ فالتفت الطفل فجأة، رمقني بنظرة منزعجة دون أن يرمش له جفن، سرت قشعريرة في

جسدي خوفًا من نظرته الجامدة، شيء ما مريب حوله! المنزل يكاد يكون فارغا من الأثاث إلا من سرير معدني يحدث صريرا مع صفعات الرياح، هالني المنظر فعدت بظهري للخلف ثم أغلقت شرفتي، فجأة علا صوت نحيب وبكاء قادم من المنزل المقابل لنا ففتحت الشرفة مرة أخرى لأجد الطفل يختبئ بجوار سريره وعلى وجهه علامات الرعب، أشار لي ناحية باب غرفته فهالني منظر أبويه يحملانِ كعكة غُرست بها شموع متوهجة لكن النار اندلعت في ملابسهم والتهمت وجههم ورغم ذلك يرددون أغنية الاحتفال بعيد الميلاد غير مبالين بالنار، إنهم يحترقون دون ألم أو صراخ كأنهم أوقدوا شموع الموت ويتراقصون حولها!

سرت رجفة في عروقي ابتعدت عن الشرفة رغم نظرات الطفل المتوسلة التي تلاحقني في كل مكان، اتجهت ناحية غرفة أبي وأمي فلم أجدهم، يبدو أنهم غادروا لشراء أغراض للمنزل الجديد، اتجهت ناحية النافذة مرة أخرى فلم أجد أي أثر لاندلاع حريق، يبدو أني أتوهم من فرط الإرهاق.

في صباح اليوم التالي استيقظت باكرًا ولا أتذكر كيف غلبني النوم! اتجهت نحو شرفة غرفتي كعادتي الصباحية فتحت ستائرها القاتمة اللون التي تحجب الضوء، لفت انتباهي ذلك الطفل العاكف

على تلوين لوحته بانهماك فتذكرت ما حدث بالأمس، أغلقت الشرفة ثم أعددت كوبا من القهوة وجلست أشربها دون تناول أي طعام كأنني أتلذذ بتعذيب معدتي التي فتكت بها القرحة، بدلت ملابسي وغادرت، قابلت حارس البناية فألقيت عليه التحية ثم سألته:

«هل أطفأوا الحريق الذي اندلع في البناية المقابلة أمس؟».

أجابني مندهشا:

«عفوا سيدي، أي حريق؟!»

ارتبكت قليلا ثم قلت بتوتر:

«الشقة في الدور الثالث؟»

أجابني متعجبا:

«لم أسمع به من قبل، البناية كما ترى لم ينشب بها أي حريق!»

ابتلعت ريقي ثم هززت رأسي موافقا ثم اتجهت ناحية سيارتي، اتجهت مسرعًا إلى عملي، جاء صالح من بعيد ملوحًا لي كعادته الطفولية فابتسمت بدوري، جلس على الكرسي المقابل لمكتبي ثم قال:

«كيف حالك يا عمر اليوم؟»

أجبته بتوتر:

«لست بخير يا صديقي»

ثم تركت القلم بهدوء وأخبرته عما دار بالأمس في البناية المقابلة، فرك صالح جبينه بيديه، ثم أخبرني أنه يستطيع المبيت معي اليوم لو كنت أشعر بالقلق، فرحبت بالأمر.

عدت إلى منزلي، تناولت وجبة خفيفة ثم غلبني النعاس فاستسلمت لنوم عميق، رغم ذلك أشعر أنني أسمع أصوات من حولي يتحدثون بجواري بصوت عالي، صوت أمي الحنون تجلي الصحون في المطبخ، صوت باب غرفتي يصدر صرير ببطء، بالتأكيد أبي كعادته يحكم الغطاء حولي ثم يترك قبلة دافئة على جبيني ويغلق النافذة التي نسيتها مفتوحة كعادتي، يعود إلى المطبخ ليساعد أمي في إنهاء الأعباء المنزلية، كم أستمتع بعلاقتهم الودودة وارتباطهم القوي ببعض! صوت أمي في السجود يخبرني بقصة حب ليس لها مثيل، كيف تدعو الله في كل صلاة أن يجعل عمره أطول من عمرها! إنها تحبه للحد الذي يجعلها ترى الدنيا بعينه فقط.

أنا أحلم أغوص في أعماق الأحلام، أصوات متداخلة يشوبها لون رمادي قاتم كالدخان، رغم ذلك أعي جيدًا بما يدور حولي، دوى صوت صراخ طفل شق سمعي، قمت فزعا من نومي أتصبب عرقا

أسمع الصوت جيدًا، إنه قادم من المنزل المقابل، فتحت شرفتي، إنه ذلك الطفل يستغيث، هناك شيء مريب يدور في هذه الشقة يثير الرعب داخلي، إنهم يحترقون كل ليلة! وقفت أشاهد النار تلتهمهم، لم يرف لي جفن بل تساقطت الدموع الواحدة تلو الأخرى خوفًا وهلعًا بل وحزنًا، شيء داخلي يحثني على الصراخ، لكن بماذا يفيد صراخي وقد شقت صرخات الطفل الحي بأكمله ولم يلتفت إليه أحد! كأنما يصرخ داخله، ولا يسمعه غيري! ما السر وراء ذلك الطفل؟! أنا خائف رغم تجاوزي الثلاثين من عمري! يحاوطني الخوف أينما ذهبت، حتى في أحلامي يرافقني الذعر والصراخ لكن لا يتجاوز صراخي حدود عقلي! تمنيت لو يخلصني أحدهم من ذلك الإحساس المقيت الذي يجثم على قلبي فلا يترك لي إلا ثقب صغير يتفلت الهواء منه لأبقى حيا! أحمل همي ولا أبوح، ألعن الصمت وإحساسي بالعجز، أتيه في أفكاري اللاهثة أبحث عن ذاتي فلا أجدها!

في صباح اليوم التالي توجهت ناحية سيارتي لأتوجه إلى عملي لكن شيء ما أوقفني، جعلني أتجه ناحية البناية المقابلة وأدقق النظر ناحية الشقة الملعونة، نظرت لأعلى طويلا فلا أثر لحريق، يجتاحني إحساس بالبرودة كلما نظرت لتلك الشقة.

صديقي صالح مُصِر على المَبيت معي، لا أتذكر جيدا متى توطدت علاقتنا ببعض، وكيف اخترق حاجز الصمت الذي يميز شخصيتي، هو من النوع الذي يعمل أكثر مما يتحدث لكني أفوقه حدًا في ذلك، يتحمل انطوائيتي وتقلباتي المزاجية، يتقبل كثرة صمتي وهدوئي، اعتدنا على ذلك منذ المرحلة الجامعية ثم العمل معا في شركة واحدة.

إنه من نوعية الأصدقاء الذي لا تحتاج إلى ترتيب منزلك قبل مجيئه أو حتى تمشيط خصلات شعرك المبعثرة، يرى الفوضى حولي فيحاول ترتيب شتاتي في صمت، يكفي أنه يتحمل شخص ملول مثلي بلا طموح، بلا أهداف، قليل الكلام، كتوم وغريب الأطوار.

ما أجمل الصديق الذي لا يكلفك عناء التجمل!

في المساء وقفت في شرفتي أنتظره، لم أستطع منع عيني من النظر إلى النافذة الملعونة، أبواه عند باب الغرفة يحترقون بشموع الميلاد، بكى الطفل خوفًا عليهم أو منهم لا أدري تحديدًا، لِمَ تسلل إحساسه إلى قلبي! انتفض جسدي وبكيت بل صرخت بشدة حتى انقطع عني إحساسي بالوجود، أنا لم أعد موجود، أنا أغوص في عالم آخر، ربما في أعماق عقل الطفل!

أفقت من إغمائي على طرقات عنيفة، قمت من مرقدي بثمالة اتجهت ناحية الباب وفتحته، كان صديقي صالح، جلست على الأريكة واضعًا وجهي بين كفيَّ غارقًا في أفكاري المتلاطمة، ربت صالح على كتفي بهدوء:

«أين والديك يا عمر؟».

أجبت دون أن يتحرك لي ساكن:

_غادروا صباحًا لزيارة جدتي في قريتها وسيقضون معها عدة أيام.

قال بمرح مصطنع:

«إذن سأتجول في المنزل بحريتي».

وقف صالح في شرفتي يتأمل المنزل المقابل ثم قال باندهاش:

«الغرفة التي تقصدها لا يظهر منها شيء! إنها مغلقة بستائر ثقيلة»

ازدردت ريقي وقلت بخوف:

«تقصد أنني أتوهم»

رفع حاجبيه وأجاب بشرود:

«ربما لا، أنا لا أؤمن بظهور الأشباح لكن الأمر وارد».

صالح

غاب عمر في نوم عميق، تسللت بهدوء وتجولت في الغرف الأخرى؛ لعلني أجد شيء يرشدني لحل اللغز الغامض، دخلت غرفة نوم تبدو كغرفة والديه، تكومت بعض الأتربة على الأثاث كأن لا أحد يعيش في الغرفة منذ أن انتقل عمر إلى هذا البيت!

لاحظت صورة على المنضدة تجمع عمر وهو ابن عشر سنوات تقريبا وأمه وأبيه، لا يوجد ملابس مستخدمة حديثا معلقة على مِشْجَب الملابس، لاحظت ألبوم صور على الكرسي المجاور للمنضدة فتحته وظللت أتقلب بين صوره التي جمعت عمر بأبويه منذ صغره وحتى المرحلة الابتدائية، أغلقت الألبوم ثم توجهت ناحية الباب، كان بجواره الكثير من اللوحات الفنية، تأملتها باندهاش، إنها لوحات رُسمت بيد طفل صغير موهوب حقا ومن بينهم لوحة انسكبت الألوان عليها بعشوائية وطرفها محترق!

بدأ الشك يتسرب إلى قلبي، تذكرت أني مذ تعرفت على عمر لم ألتقِ بوالديه ولو مرة واحدة!

انقطع التيار الكهربي فجأة وساد الظلام، ظلام حالك لا مجال فيه للرؤية، تتراقص الخيالات أمام عيني، أستطيع رؤية زوجين جالسين حول المنضدة يرمقاني بنظرة لوم، سرت رعدة في

عروقي، ربما أتوهم بفعل الضغط النفسي الذي وضعت نفسي فيه، حاولت الخروج لكني تعثرت في مخاوفي، تحسست الخزانة حتى استطعت الوصول إلى باب الغرفة، خرجت وأحكمت غلق الباب بهدوء، بصيص ضوء يشق العتمة أتى من غرفة عمر، يتراقص الضوء ويتلاعب بمخيلتي، اصطدمت بشيء فانتفضت ذعرا، رمقني عمر بنظرة اندهاش مصوبا ضوء هاتفه في وجهي، سألني بشك:

«هل كنت بغرفة والديّ؟»

أجبت بتلعثم:

«لا، فقط كنت أحاول الوصول للمطبخ لأبحث عن شمع»

في الصباح الباكر استأذنت عمر في النزول لشراء الفلافل الساخنة، كان حارس البناية جالسا على أريكة خشبية يحتسي كوبا من الشاي، ألقيت عليه التحية وبعدما دلفت الباب الحديدي توقفت لبرهة ثم عدت إليه مرة أخرى، سألته:

«متى سافر والد عمر ووالدته؟ أود تذكر اليوم أكان الإثنين أم الثلاثاء؟»

مط شفتيه بعدم فهم ثم قال:

«لم ألتقِ والديه منذ أن سكن في تلك الشقة»

هززت رأسي ثم تحججت بتأخري عن موعدي وانصرفت بسرعة قبل أن ينهال عليّ بسيل من الأسئلة الفضولية.

سِرتُ متخبط الفكر، كيف لم ألتقِ بوالدي صديقي طيلة هذه السنوات! نعم توطدت علاقتنا منذ سنواتٍ قريبة لكن ذلك لا يشفع لي.

عدت إلى المنزل، ناديت عمر فلم يُجب!

كانت غرفة والديه مضاءة، فتحت الباب بحذر ودلفت إلى الغرفة، في زاوية الغرفة عمر يجلس القرفصاء وأمامه اللوحة المحترقة، ربتت على كتفيه فرفع رأسه بوجه غارق بالدموع، هالتني هيئته!

رمقني بنظرة خوف ثم ناولني اللوحة وقال بيأس:

«الطفل كان عاكفا على تلوين تلك اللوحة»

صحت فيه:

«لا يا عمر، صدقني لا وجود للطفل، يجب أن تواجه مخاوفك ولا تستسلم.»

مر يومين لم أترك فيهم عمر سوى لشراء الطعام، حان الوقت للبحث عن أهله ومعرفة الحقيقة كاملة، بحثت في الأوراق الموجودة في غرفة أبيه وجدت بطاقة قديمة منتهية تخص أبيه

مسجلة بعنوان آخر، قررت الذهاب لهذا المكان، كان حي قديم منازله بسيطة، هناك رجل عجوز يقف في محل بقالة، يساعده في العمل شاب يقاربني سنًا، سألته عن المنزل الذي كان يسكن فيه والد عمر فلم يتذكره، حاولت تذكيره إن كان هناك حريق في أحد البيوت بالمنطقة، جاءني الشاب من الداخل وقد تذكر ما كنت أتحدث عنه، أخبرني أنه منزل عمر صديق الطفولة.

استأذنته أن يقص لي ما حدث تفصيلا فقال:

«عمر وحيد أبويه، كان مولعا بالرسم، وفي يوم قرر أبويه أن يحتفلا بعيد ميلاده، دخلوا غرفته حاملين الكعكة وحينما أوقد والده القداحة ليشعل الشموع اندلعت النار فيهم بسبب العطر الذي أغرق ثيابهم، احترقوا وماتوا أمام عينيه، لم يحتمل الصدمة وفقد وعيه ثم أنقذه الجيران، أكمل حياته مع جدته حتى المرحلة الجامعية ثم انقطعت أخباره عني بعد وفاة جدته، أشعل فقدانها جراحه القديمة، انتقل إلى بيت آخر لكن لا أعلم عنه شيئا بعدها».

أنهى كلماته وانتهت ظنوني معها، كنت متيقن أنه يتوهم، أشفقت عليه، هل الفقد يفعل مثل ذلك بصاحبه! هل كان الأمر شاقا على عقله فرفض الواقع واستبدله بخياله!

عدت إلى شقة صديقي ودخلت غرفة والديه، بحثت في كل شبر فيها حتى وجدت ما كنت أبحث عنه، شهادات الوفاة!

دخلت إلى غرفته المبعثرة، فوجدته أشعث الرأس كعادته، شاردًا، تحيط الهالات البنية بعينيه، بدا شاحبا عن ذي قبل، جلست بجواره، حاولت إخراج الكلمات من فمي بصعوبة، شددت على نفسي ألا تضعف لأكون مصدر قوته، قلت بصوت خافت:

«يا عمر، أود إخبارك بشيء.»

لم يلتفت إليَّ فقلت بهدوء:

«لقد مات أبويك!»

ظل شاردا وقال بهدوء:

«إنهم يزورون جدتي.)

هززت رأسي موافقا ينتابني حالة من التوتر:

«نعم، أنت محق، جميعهم .. أرواحهم في السماء.»

رفعت الشهادات أمام عينيه:

«مات والداك يا عمر.»

نزلت دمعة متعسرة بين جفنيه، أخذ الورقتين بيدٍ مهزوزة وألقاهم بجواره، وقال بصوت محشرج:

«لا، لم يموتوا.. جميعهم أحياء.»

ربتُّ على كتفيه محاولا التماسك، قلت:

«ستكون بخير ولن أتركك يا صاحبي ما حييت، فقط تقبل الأمر وقل إنا لله وإنا إليه راجعون.»

دفع يدي عن كتفه ثم قام مندفعا:

_«لا تقل ذلك.. اصمت».

حمل قنينة الماء وقذف بها في المرآة وقال صارخا:

«اصمت يا صالح لا تقلها».

مسكت بمعصميه وشددت عليه، قلت وقد خنقني البكاء:

«لن أصمت، مات والداك يا عمر».

سقط على الأرض متكورا يحاول صم أذنيه بيديه ثم قال بنحيب:

«لا لم يموتوا إنني أراهم دائما، أسمع أصواتهم بأذني».

أمسكت بذراعيه وقلت:

«نعم، موجودان داخلك لكنهم بين يدي الله، آمن يا عمر، إنهم ماتوا».

ظل يصرخ وينتحب، يبكي كطفل تاه لتوه، امتلأ وجهه بالدموع، يقفز كأنما الأرض تلسعه بنيران الفقد، يهرول في أركان الغرفة كالغريق بين الأمواج العالية، سقط أرضًا ثم قال:

«إنا لله وإنا إليه راجعون، مات أبي وأمي يا صالح، ماتا وتركاني أحيا دونهم وحيدًا كالحي في قبر».

تمت

الحكاية العاشرة

الحـاضــر الغـائب

حينما تتعمد الشمس تسليط أشعتها الذهبية في عينك حتى تستيقظ رغما عنك حتى لو كنت في غيبوبة أيقظتك!

عبر نافذة إحدى المستشفيات بالقاهرة، كان يرقد يونس ابن الخمسة وعشرين عاما أسيرًا للأسلاك والأجهزة الطبية التي فقط تساعده على البقاء حياً!

دخلت إحدى الممرضات كعادتها اليومية منذ إثني عشر يوما منذ دخوله المستشفى، قامت بتغيير المحلول الذى يسرى في وريده ثم دونت في دفتر المتابعة الخاص به تطورات حالته الصحية بتاريخ اليوم ٢٣ أبريل1991 ثم غادرت الغرفة بهدوء.

كل المؤشرات الحيوية مستقرة إلا أنه في حالة غيبوبة مجهولة السبب، فقط عينيه تتحرك بسرعة واضطراب وكأنه في مرحلة نوم العميق يتنقل بين أحلامه لاهثا.

تناثرت قطرات العرق على جبينه، ضم عينيه بشدة ثم فتحها ببطء، تأمل المكان حوله والأسلاك الطبية التي كبلته، نزعها عنه بضيق ثم نهض واتجه ناحية المرآة المقابلة له، تطلع إلى خصلات شعره التي طالت وتناثرت حول رأسه ولحيته التي نبتت قليلا، لفت انتباهه، التاريخ المدون في دفتر المتابعة الخاص به 23 أبريل 2017، خرج من الغرفة في حالة هلع، هبط الدرج حتى وصل

للطابق الأول فوجد موظف الاستقبال أمامه شاشة تتميز برقة سُمكها، ينبعث منها ضوء أبيض خافت يتحسسها بإحدى إصبعيه، ظل وجه يونس مثبت على تلك الشاشة في اندهاش وانبهار ملحوظ حتى نظر إليه الموظف في ريبة، سأله:

«هل أستطيع مساعدتك؟»

ظل وجه يونس مُعلق ناحية الشاشة، ازدرد ريقه وقال متلعثماً:

«أنا لا أتذكر كيف أتيتُ إلى هنا؟!»

اصطحبه موظف الاستقبال إلى غرفته، ثم طمأنه أنه سيتصل بأهله ليخبرهم بشفائه، قطع حديثه طرقات الطبيب على الباب.

قام بفحص يونس جيدًا، أخبره أنه بخير الآن ويستطيع الخروج وقتما يشاء، قالها الطبيب ثم غادر تاركاً يونس شاردا، قطع شروده موظف الاستقبال قائلاً:

«أنا مُعاذ وأنت؟»

أجاب بتلقائية:

«يونس»

«هل تتذكر أي شيء قبل إصابتك بالغيبوبة؟»

«نعم.. أتذكر أن عليَّ مناقشة رسالة الماجستير الخاصة بي قبل ١ يونيو 1991 هل مكثتُ في الغيبوبة أكثر من ذلك؟»

ابتسم معاذ:

«يبدو أن الغيبوبة أثرت على ذاكرتك قليلا، نحن في عام 2017 هناك فارق زمني كبير بين التاريخين، الأفضل أن تستريح حتى أقوم بمهاتفة أسرتك.

قالها وانصرف تاركاً يونس شاردا كطفلٍ تائه في الزحام، عاد معاذ مرة أخرى ناكساً رأسا، قال بتوتر:

«للأسف لم أجد أي بيانات تخصك»

«لا عليك، أنا أتذكر عنواني جيدا، سأتولى أمري، شكرًا لك».

خرجتُ إلى الشارع لاحظت اختلاف كبير في هيئة الناس حولي حيث الذوق العام وتغير شكل الشوارع والبنايات، لم يكن معي نقودا تكفي لسيارة تقلني إلى حي الزمالك الذي تسكن فيه أسرتي، لا أتذكر الشوارع جيدا فقد ساد الزحام وتغيرت معالمها مما أثار الريبة داخلي لكني أشعر أن شيئا ما يدفعني للسير، وصلت ولم أجد داري، حاولت السؤال عن منزل باسم والدي الدكتور عزت جبريل فلم أجد إجابة تشفي قلقي، ظللت أبحث إلى أن حل الظلام وتورمت قدماي من البحث، أنا وحدي في عالم غريب، أبحث عن أهلي ويمزقني الحنين إليهم، أتذكرهم جيدا وكأني كنت معهم منذ قليل، لا أدري سبب شعوري بالوحشة هكذا؟ هل لأني ضللت الطريق أم من

التغيير الذى طرأ على الناس حولي؟! ما تلك الشاشة الصغيرة التي يضعها ذلك الفتي علي أذنه؟! منذ متى والشاشات تُسمع بالآذان؟!

شعرت بالتخبط والاضطراب بل والخوف من تغير الأشياء حولي، لم أشعر بنفسي إلا وساقتني قدمي إلى مُعاذ موظف الاستقبال مرة أخرى، عُدت إليه ولا أدرى ماذا أقول؟ استقبلني وتعلو وجهه علامات استفهام، حاولت أن أشرح له ما حدث لكن لساني عجز عن وصف كل ما يدور حولي، إنه تغير تام ليس فقط للأماكن بل للأشخاص والأشياء، هناك ثورة تكنولوجية ما أصابت العالم أثناء فترة الغيبوبة التي لم تتجاوز عشرة أيام، أم أني ما زلت في غيبوبتي وكل ذلك كابوسا لا أستطيع الاستيقاظ منه.

عرض عليّ معاذ المبيت عنده في بيته حتى نرى كيف سنتصرف، كان ودودا معي للحد الذى جعلني أشعر أنه أخي الذي أشعر بالحنين إليه.

قطع شرودي وهو يقدم لي والدته ووالده في بيت شعرت فيه بالألفة والدفء، دخلت إلى غرفته واستسلمت لنوم عميق، كيف ينام النائم؟! أشعر وكأني في كابوس أريد الاستيقاظ منه، المؤلم أني استيقظت في نفس العالم الغريب!

قدم لي معاذ طعام شهي التهمته في نَهم من فرط جوعي، جلس بجانبي يحاول إقناعي أني من الممكن أن أكون فقدت جزءاً من ذاكرتي لكنى مُصر أني أتذكر كل شيء عن حياتي جيدا لكن من زَجَ بي في هذا العالم، أنا أتذكر جيدا أهلي ودراستي حتى أسماء أساتذتي المشرفين على رسالتي، قطع حديثنا نقراً قوياً على الباب، دخل أخيه وتعتلي وجهه علامات الضجر والحزن، أخبر مُعاذ أن صديقه أعلن إلحاده على صفحته على الفيس بوك، اعتدلت في جلستي فور سماعي كلمة إلحاد، أقبلَ وهو يتحسس تلك الشاشة الصغيرة في يده ثم فتح مقطع فيديو دون أن يوصل ذلك الجهاز العجيب بالكهرباء أو يوصله إلى هوائي ليتمكن من الاستقبال والإرسال، كل ما فعله ضغطة واحدة بطرف بنانهِ، وما هذا الفيس بوك الذي يتكلم عنه، ظهر صديقه وهو يعلن عدم اقتناعه بأشياء في الدين الإسلامي، تحدث عن أفكار ومعتقدات لديه تنُم عن مدى جهله وسطحية فكره وضعف إيمانه بل وانعدامه!

كنت في حالة تشوش واضطراب لما سمعت، كل هذه المؤثرات حولي كيف عليَّ استيعابها وما هذا الجهاز الذى جعل العالم مفتوح كقرية صغيرة.

استأذنته أن يشرح لي أكثر ما هذه الإشارات والكلمات المحيطة بالمقطع مثل #إلحاد #لا_ديني #نظرية_التطور وغيرها من الكلمات التي تسطيع بضغطة واحدة من إصبعك أن تفتح مقاطع ومقالات ذات صلة، فتح عدة نوافذ تتحدث عن أفكار مغلوطة ومشوهة للعقيدة الإسلامية، تدليس مُبين لأمور كثيرة في الدين، كلما تقلبتُ بين مقطع وآخر اتسعت حدقة عيني غير مصدق ما يحدث، في دقائق معدودة وأنا في ذات مجلسي هذا معتقدات تُهدم وأكاذيب يَتقَوَل بها أولوا الجهل إن لم أكن صاحب عقيدة راسخة لانتكست!

والأدهى أن كل ما رأيته يستطيع إنسان في آخر الكرة الأرضية أن يراه ويتبني فكرة خاطئة من خلاله عن المجتمع العربي والإسلامي.

مر قرابة الأربع ساعات وكأنها نصف ساعة، يا له من جهاز لعين يُهدِر الوقت ويضيع المبادئ ويغير المفاهيم كلٍ على حسب ما يخدم أهواءه الشخصية.

ليس هذا فقط بل إن العلاقات الاجتماعية تم اختصارها في كلماتٍ يتبادلونها من خلف أجهزتهم وبالطبع انقطعت صلة الرحم.

لاحظت أيضا تدني في المستوى الثقافي لدى الشباب، ناهيك عن انعدام الخصوصيات والتراجع الملحوظ للقيم والعادات.

للحظاتٍ شعرت بالخوف كأنه تم احتجازي في عالم يضُج بأشياء تحتاج لعقلٍ واعٍ يستطيع تمييز الأمور قبل تصديقها، في عالم أسهل ما فيه ترويج الإشاعات.

جلست بمفردي في الغرفة أتساءل، كيف جئت إلى هنا يا يونس؟ كيف الوصول إلى أهلي في عالم ظاهره سهل التواصل وباطنه متفرق السُبل ممزق الروابط والعلاقات، تجمدت فيه المشاعر واستحالت إلى مجرد كلمات باردة هشة.

أين الترابط الذي اعتدت عليه في عالمي دون وسيلة تُسهل ذلك؟!

بدأت أفقد السيطرة على عقلي فكل هذا أكبر من قدرة استيعابي بكثير لا أود البقاء هنا، شعرت بصداع يدق رأسي بشدة، تدور الأفكار والأحداث حولي كأن لها أجنحة سود كالصقور، درت حول نفسي والضجيج يتزايد وكأن الدائرة تضيق لتخنقني، صرت أجرى كالمجنون الذي يفر من جلسة كهرباء تنهش عقله وجسده، اصطدمت في المنضدة فسقطت أرضاً وتهشمت فوق رأسي مزهرية من الفخار ولم أشعر بشيء بعدها.

فتحت عيني ببطء، أستطيع سماع أصوات بكاء مكتوم وهمهمات، إني في الغرفة الخاصة بي بالمستشفى، ألن ينتهي هذا الكابوس بعد؟! كانت هناك سيدة تبكي بشدة، يبدو أنها أم مُعاذ! لا بل إنها أمي، وأم مُعاذ!

كيف لعقلي أن ينسى ملامح أخي ويختلق كابوسا كهذا؟ هل عبرت من فوهة ما اخترقت بوابة الزمان؟! لا أدري ما حدث لي ولكن ما أعلمه جيداً أنني اليوم في شهر أبريل عام 1991 وأني لا بد أن أسعى لتقديم رسالة الماجستير الخاصة بي التي تناقش الثورة التكنولوجية وعلاقتها بتطور وسائل التواصل الاجتماعي وأثرها على الوطن العربي والإسلامي.

تمت

الحكاية الحادية عشر

وأد القلوب

استَيقظتُ على أصوات زغاريد توالت على سمعي كناقوس يدق لينذر بخطرٍ قادم، هرولت مسرعًا ناحية النافذة، كانت الزغاريد آتية من الشرفة المقابلة مباشرةً؛ حيث تسكُنُ حبيبتي، بدأت ضربات قلبي تتسارع بخوف وترقب، دخلت والدتي لتجدني واقفاً كصنم عاجز عن الحركة، ربتت على كتفي وقالت محاولة إخفاء مراسم الحزن التي ارتسمت على وجهها:

"العقبى لك يا ولدي، سيعوضك الله".

هوت كلماتها على أذني وشقت صدري ثم أخرجت قلبي وطعنته بطعناتٍ متتالية، كيف حدث ذلك! لم أضع لهذا اليوم حسبانا.

كنت في الصف الأول الابتدائي، سمعت جارتنا تخبر أمي أنها ستلد اليوم وتحتاجها لتكون برفقتها عند الطبيبة، وفي الموعد سحبتني أمي من يدي وذهبنا إلى المستشفى، سمعت صرخات جارتنا المتتابعة ثم تلاها صوت طفل يبكي، ابتسمت أمي وحمدت الله ثم أخبرتني أن الخالة نوال رُزقت بأنثى، دخلنا الغرفة لأرى وجه ملائكي ملفوف في وشاح أبيض، ابتسمت أمي وقالت لي:

«تعالى يا صغيري ردد الآذان في أذنها كما علمتك»

مرت الأيام وكبرنا معًا، تشاركنا اللعب والخروج للتنزه وحتى الذهاب إلى المدرسة، كنت أحتضن كفها الصغير بين أصابعي وأقوم بتوصيلها إلى الروضة، أراها صغيرتي فحسب ولا أعلم أنها بذرة حب فطري نبتت في قلبي حتى التحقت بالجامعة وصرت شابا يافعا، وفي صباح أول يوم دراسي ناديت باسمها فنزلت الخالة نوال برفقتها فقلت مازحا:

«هيا يا وعد، اركبي الدراجة خلفي لأَوَصلك في طريقي»

ابتسمت الخالة وربتت على كتفي وقالت:

«اذهب أنت يا ولدي، كبرت وعد وتستطيع الذهاب بمفردها».

هززت رأسي موافقا بشرود متسائلا داخلي، هل كبرت علي! ذهبت إلى جامعتي يغمرني الاندهاش، لم تعد وعد كما كانت! صار المزاح معدومًا والحديث في حدود، كما أنها كلما طرقتُ بابهم؛ وضعت الحجاب على خصلات شعرها الناعمة لتخفيه عني!

وقتها شعرت بنبضات الحب تدق في قلبي بشدة، وكأن في منعها أشتاق أكثر! مرت الأيام سريعًا وتخرجت من جامعتي، كل ذلك ويربطني بها بِضع نظرات تجودُ بها عليَّ من آنٍ لآخر لكنها كانت كفيلة لتشعرني أنها باقية على الوعد الذي تعاهدناه يومًا.

«سأنتظرك لآخر يوم في عمري، لن أكون لغيرك أبدا»

قالتها على استحياء قبل سفري لقضاء الخدمة العسكرية؛ ما جعلني أطمئن وأعد الأيام التي تمر لأعود إليها.

قضيت الخدمة العسكرية وبدأتُ في رحلة البحث عن عمل والتي طالت مدتها حتى التحقت بوظيفة بأجر زهيد مما اضطرني للعمل في إحدى المطاعم في الفترة المسائية، أعمل ليلا ونهارًا من أجل توفير المال لأستطيع التقدم لخطبتها.

بمرور الوقت تغيرت كثيرا معي، لم تعد تنتظرني في الشرفة كعادتها لتراني وأنا عائد من عملي، حتى أنني أدخل شرفتي ليلا في البرد القارس وأتظاهر أنني أسعل لتسمع صوتي فتتصدق علي برؤياها ولكنها لم تعُد تفعل!

انقبض قلبي لم أفهم سبب ابتعادها عني!

ذهبت إليها في الجامعة، رأيتها في مطعم الجامعة تتناول فطورها برفقة أحدهم، اشتعلت النار في صدري فاقتربت منها بهدوء، رمقتها بنظرة لوم وسألتها:

«من هذا؟»

ارتبكت ثم استأذنته في الانصراف ومشت بجواري منكسة الرأس، لم أتفوه بكلمة ولم تفعل هي، فرت دمعة من بين جفوني سارعتُ بمسحها ثم قلت:

«هل نضب القلب مني؟! هل لم يعد لي مُتسع داخلك؟!»

عم الصمت لدقائق ثم قالت بهدوء:

«أنت مثل أخي، سيعوضك الله بخير مني».

نظرت لها باستنكار ثم قلت:

«لم أكن أخيكِ يومًا ولن أكون غير ذلك من الآن»

قلتها وغادرت بقلب منكسر، إنها من أحببتها ولم يسكن فؤادي غيرها، لم أصارحها بحبي يومًا حتى فعلت هي منذ عامين، وعدتني بأنها ستنتظرني لآخر يوم في عمرها، وخانت الوعد!

لم أحاول الاقتراب منها مرة أخرى، لم تخلُ عينيها من نظرات الشفقة كلما قابلتني صدفة، أنا ضائع بدونها، أهوِي ترديًا من فوق حُطام قلبي كل ليلة وأنا أتخيل نظرتها العاشقة له.

مرت الأيام بمرارتها التي لم تفارق قلبي، عدت من عملي ذات يوم لأجد والدتي غارقة في دموعها، سألتها وقد هالني هيئتها فقالت:

«اليوم تقدم معيد بكلية وعد لخطبتها ووافقت»

ازدردت ريقي، حاولت التماسك وقلت مهونا:

«هي ليست من نصيبي يا أمي، لا تحزني»

باعتني بثمنٍ بخس ورغم ذلك قلبي متعلق بها، حبها كان هش أجوف بينما بنيت من قصة عشقنا سقف عالي انهار فوقي مع رياح الخريف، يؤلمني انتزاعها من أعماق الفؤاد، كأنها إحدى أضلعي فارقتني ولن يمكنني استرداده بعد!

هي مني، كيف صارت لغيري؟! أفقت من شرودي على صوت الزغاريد، شق عليَ الأمر، بدلتُ منامتي وأخبرت أمي أنني سأتأخر اليوم بالطبع لن أتحمل رؤيتها وهي تتأبط ذراعيه! توجهت إلى صالة الألعاب الرياضية، حاولت إخراج كتلة الغضب التي امتلكتني، كنت أرفع الأثقال وكأني أرفع حبها من قلبي، بالغت في التمرن اليوم، تخيلتها أمامي وهو يقف بجانبها، وجهت له لكماتٍ متتالية ومر وقت طويل ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أسقط أرضًا، أشعر بخدرٍ يسري في ذراعي الأيسر وألم حاد يشق صدري وكأني أُنازع لأخرجها من قلبي، فخرجت روحي معها، لم يُكتب لي الحياة بدونها، لأني أحيا بها.

تمت

الحكاية الثانية عشر

على هامش الخيانة

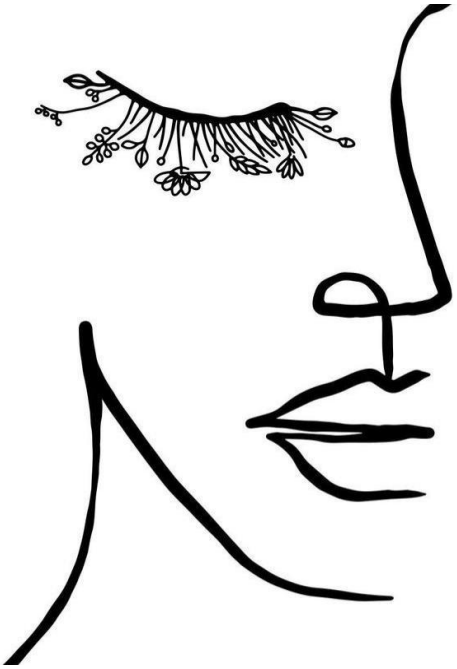

أراها من شرفة منزلي، غرفتها الصغيرة مضاءة بلون أصفر خافت، تتقلب في فراشها بلا نوم، الأرق يمزق مقلتي عيينها، ودموع دافئة تسيل على وسادتها في صمت، تبادر بمسحها بين الفينة والأخرى، ثم تبتسم وأحيانا كثيرة تضحك، بل ويصيبها نوبات من الضحك المتتالية، نحيلة كعود الورد، هزيلة شاحبة كسماء رمادية في يوم خريفي.

رفعت هاتفي وحاولت الاتصال بها، نظرت إلى شاشة هاتفها وابتسمت ثم وضعته جانبا، أحاول اختراق صمتها على استحياء دون فائدة، تعبث هي بمقبس النور المتدلي من "أباجورة" بجوارها، تفتحه وتغلقه دون أن يرف لها رمش، كأنها تعيش على هامش الحياة، لا تجني منها سوى صفعات من الحزن، المؤلم بحق لو تركت الصفعة آثار جروح ودماء لا يداويها أيام!

تقف فجأة وتتجه نحو خزانة ملابسها، تخرج فستانًا باللون الأحمر القاني، تسرع بارتدائه، تمسك بهاتفها ثم

تتصل بي فأجيب لأسألها عن حالها بعدما هزمها الزمان بخيانة حبيب فتجيب ببشاشة مصطنعة:

"لم يكن حبيبي إلى هذا القدر، مجرد إعجاب وزهدته حينما تزوج بأخرى، هنيئا لها"

ألقت عليّ بضع نكات مصحوبة بضحكات عالية مجلجلة ثم أنهت مكالمتها معي بأنها بأفضل حال ولا داعي للقلق.

أغلقت الخط، وضعت الهاتف جانبا، اتجهت نحو مرآتها، تحسست خصلات شعرها الأسود الطويل، أمسكت بمِقص وقصت شعرها ليحاذي شحمة أذنيها، ألقت بالشعر حولها بعبث ثم توالت دمعاتها مرة أخرى فاتجهت نحو وسادتها ودفنت وجهها بها.

الحكاية الثالثة عشر

العـرافـــة

العرافة

جَلَسَتْ تَتَأمَّل كَفَيهِ بِتَرَقُبْ، لا يَخْلو وجهها من تجاعيد حُفِرَت بعناية حول عينيها وفمها لتطبع في قلبِك التوجس والخوف حتى لو لم تَتَفَوَه بِكَلمة!

امرأة جاوزت مُنتصف الستين من عُمرها ولم يَنحنِ لها ظَهرٍ كمثيلاتها في نفس العُمر!

ثَقَبَتهُ بنظرة حادة كشفت عن غشاوة بيضاء تكسو حَدَقة عينيها، وقالت: احذر يا ولدي!

احذر أن تقع في حُب امرأة باعت حبيب أو نَكَرت جميل أو هان عليها العيش قبل الملح.

احذر التي تُلازِمك في رغد عَيشك وتَترُكك في ضِيقك.

احذر يا ولدي امرأة تَدَّعي الصِبَا بعد الشيب تأكُل سنوات عُمرك كالنارِ في الهَشيم، تَحني ظهرَك ثم تَطعنك فيه وتمضي كأن شيئًا لم يكُن!

ثم ضَيَّقَت عَيْنَيها لتزداد تجاعيد وجهها بخطوطٍ طولية وعَرضية مُتداخلة كطلاسم مُبهمة وقالت بصوتٍ كفحيح الأفاعي:

_واحذر أن تُكَذِّب كلماتي تِلك أو تُصَدقها!

فإن كَذَّبتها أصابتك لعنة السابقين وإن صَدَّقتها صِرت أسيرًا لها حتى يفنى عمرك هباءً.

حكايات مبعثرة

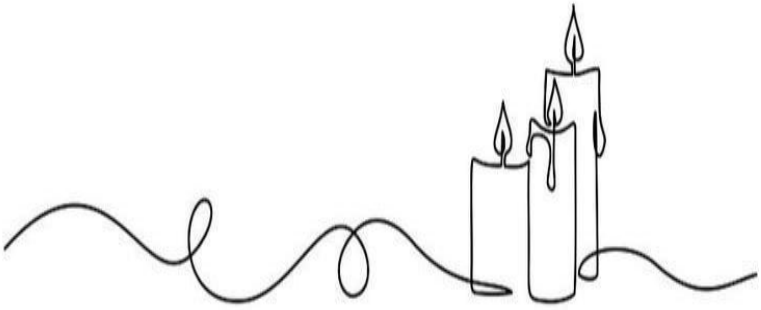

#عنهـــا

عزيزتي، لا يعلم مدى انكسارك سوى امرأة تعيش نفس معاناتك، تحملين على عاتقك مشقة الرجل وضعف الأنثى!

تستيقظين باكرًا متثاقلة متعبة تجاهدين من أجل الاستعداد لعقارب الساعة التي تدور حاملة روحك فوق عقرب الثواني، تدورين بسرعة رتيبة، الأشياء تتكرر كل يوم بملل، تذهبين لعملك، تقابلين وجوها كثيرة، تتحملين ثرثرة زميلتك وصياح مديرك العصبي المزاج، وعبوس زميلة أخرى لم تتفوه بكلمة لكنها تحمل نفس أعبائك، ثم تنهين عملك، تذهبين للتسوق، تحملين أكياسًا من الخضر والفاكهة، تنظرين في حقيبتك الفارغة إلا من بضعة نقود ودواء مسكن للآلام، تتطلعين إلى راتبك الذي شرع على الانتهاء متوسلة أن يكمل الشهر، تعودين لمنزلك مرهقة الجسد، منهكة الروح، تطبخين وتنظفين، ترتبي، تذاكري، تطعمي وتداوي، وتسمعين لشكاوي أبنائك، صوت صراخهم يصدع في روحك لكنكِ تمتصين ذلك كالإسفنجة لا يظهر عليكِ الانهيار، يعود زوجكِ من عمله متثاقل الجسد متعب الروح، صامت، صامد أمام أعباء الحياة هو الآخر، يُلقي أثقاله على مسامعك إن لم يحالفكِ الحظ اليوم ولم تتشاجرا لأسباب واهية!

ثم تعودين إلى وسادتك مطبقة الفم والروح، تهوين من فوق عقارب الساعة إلى هوة عميقة من الانفعالات أثناء نومك! تحملين جبلا كاد يدهسك لكنكِ تعافرين من أجل البقاء بعقلك دون خَبَل!

دائرة مفرغة تدورين فيها حول نفسك فاقدة الإحساس بالزمن، لا تدرين بتاريخ اليوم إلا من اقتراب نفاذ راتبك!

تمضي الأيام ثم الشهور فالسنين، لا تتذكري سبب كثرة الشيب في رأسك ومتى ظهر، لكنكِ تعلمين جيدا أن عمرك أقل بكثير من المدون في بطاقتك.

تمت

عنه

نادى بأعلى صوته في الشارع المزدحم الذي يعج بأصوات مختلفة من البائعين؛ لكن هتافه مختلف، صوته يشق حنجرته قائلا «أَسِن سكاكين، أَسِن المِقص»

حملت السكين المُنْثَلِم الذي كاد أن يُنسى كنهه من قلة استخدامه ونزلت مسرعة لألحق بالمنادِ، أعطيته السكين ووقفت أتأمله وهو يقوم بعمله، وجهه الخمري الذي صبغته الشمس من أثر التجول في الشوارع في الأيام الحارقة!

يداه متشققتان بشدة، يغور الشق فيها إلى أعماق طبقات الجلد، تشققات عدة منتشرة في جلده ربما لا يشعر أن سكينا جرح يده من الأساس!

أظافر سميكة قصيرة انغرست داخل أصابعه، ملابس ملطخة بالأتربة وبنطال قصير أظهر نعاله البالية، علامات الفقر ترتسم

بعناية في هيئته، يمسك السكين بمهارة ثم يُقرب النصل من العجلة الدوارة فتصدر شررًا أهوج، أعطاني السكين سيفه حاد لامع يكاد يخترق إصبعي لولا انتباهي،

أعطيته خمسة جنيهات؛ فطبقها بيده ثم قبلها بفمه ثلاثًا ودسها في جيبه برضا!

ظننت أنه ربما يطلب أكثر، أو ربما يتفلسف عليّ كعادة بعض الباعة ويخبرني أنه أرخص سعر في السوق فيجبرني على دفع المزيد؛ لكنه تعفف!

حمل المَسَن على ظهره المنحني من كثرة الهموم والأعباء، رغم ذلك عاود الصياح مرة أخرى:

«أسن السكاكين أسن المقص»

#عنه

أسندت ظهري للحائط أنتظر دوري في إحدى المصالح الحكومية، مر بجواري عامل البوفيه حاملا الشاي الساخن الذي يتصاعد أبخرته لتداعب أنوف الجالسين في ذلك البرد القارس، رجل من الزمن الجميل الذي يُجبرك حسن خُلُقه وتعامله الودود على أن تبتسم فور رؤيته، تبدو علامات كبر سنه في تفاصيل وجهه، تجاعيد الزمان محفورة بعناية حول عينيه، خطوط متوازية شقت جبينه، ونظارة طبية سميكة العدسة تخفي خلفها عين مرهقة مجهدة تنتبه للزائرين الجدد، ربما يذكرني بجدي!

يمر بجواري في همة ونشاط يوزع أكواب الشاي على الجالسين رغم ضعف جسده!

اشتهيت رائحة الشاي الساخن فطلبت منه واحدا.

أسرع في تجهيزه، أقبل حاملا كوب الشاي يعلو وجهه تلك الابتسامة التي تُجبرك أن تقول:

«شكرا يا والدي»

فترى علامات السعادة ارتسمت على وجهه بحياء.

إن هذا الرجل ومثله كثير يبعثون رائحة الطبية وأصالة أهل الماضي حولهم في كل مكان، لا تمل من السماع لحكاياتهم، تشعر بدفء الماضي يجلو برودة هذا الزمن القاسي!

#عنها

راقبتها من بعيد، تبدو كالنسمة إذا حضرت، سكنت الأصوات إلا من همس دعائها، تلهج بذكر الله ثم كلمة "أمي" تراها عصية الدمع صابرة الفؤاد معلقة البصر على شفتي والدتها لعلها تناديها بصوتها الدافئ، تأتي كل يوم في نفس الموعد حاملة مصحفها الوردي ومعطف وقنينة عطر!

تسكب القليل من العطر على المعطف ثم تعانقه وبصرها متعلق بأمها، كأنها تُمني نفسها بعناقها يوما وتستنشق عطرها المفضل.

وما إن تفقد الأمل تسيل دمعة على خديها تذوب لها جمود ملامحها الحزينة، تجلس بجوار الباب ترتل القرآن بصوتٍ خفيض تناجي ربها بحياء!

«يا رب، أعدها لي»

تجلس كل يوم بجوار زجاج النافذة الملعون الذي يفصلها عن أمها، تتأمل الغرفة والجسد الهزيل الراقد على السرير باستسلام، كل شيء في مكانه، لم يتحرك ساكن بالغرفة، وماذا عن الرؤيا التي رأتها أمس في منامها! ألن تتحقق بعد! شعرت بدفء لمسات أنامل أمها تعانق دمعاتها الهاربة من عينيها فمسحتها، أفاقت من شرودها على صوت زقزقات العصافير بالشجرة المجاورة، الأم تطعم أطفالها الحب في فمهم فتتذوق حلاوته هي!

تشبثت بكُرَةٍ من الصوف مغروس بها إبرة، ونسيج لم تنته حياكته بعد!

سألت بهدوء:

«يا أمي، أخبريني كيف تغزلين الحب في ملابسنا؟! فقد سئمنا الملابس الباردة الخاوية من لمساتك الدافئة!».

عم الهدوء في المكان وزادت برودته، سقطت الإبرة وبكرة الصوف فأحدثت رنة مسموعة في المكان ثم فر الخيط مسرعا نحو باب الغرفة، سمعت صوتها يتردد في ذهنها يناديها لتناولها الخيط، فقالت بصوت مرتجف من البكاء:

«يا أمي قد أخبرتك يوما أن تضعي الخيط في صندوق كي لا يفر منكِ لأني مشغولة فتخبريني أنكِ تودين رؤيتي كل حين! لن

أنشغل عنكِ ما حييت، أقيم عند تلك النافذة منذ أسبوعين ولم أمَلَّ انتظارك، وملَّ الانتظار مني! أخبريني متى ستكملين غزل تنورتي الوردية؟ أشعر أن النسيج يأبى فراقك وأخشى أن يتمرد عليّ ويُنقض من بعد ما وضعتي فيه من دفئك!»

في رواق المستشفى تقف عاجزة عن فهم ما يدور حولها! تسمع كلمات الطبيب إلى والدها برتابة:

«طال المكوث، لابد من محاولة فصل الأجهزة عنها، لنرى استجابة جسدها»

رمقته بنظرة سخط لم ترسمها عينيها يوما، لم تفهم معني القتل الرحيم من قبل، هل سيقتل أمها؟! وهل سيقبل أبيها؟

تعلقت عيناها على الجسد الذي أكله المرض وكثرة الرقود في الفراش، لم تعرف براءتها معنىً للموت يوماً أشق من فقدان عصفورتها منذ ثلاثة أعوام، فماذا عن صاحبة العش!

أدخلوها لتودعها، دخلت بقلبٍ منفطر مقسوم ضائع شِقيه بين ضلوع أمها!

أمعنت النظر في وجهها الشاحب، لامست خديها الذين انحسرا بين عظام فكيها وذابت نضارتها، يد باردة كالثلج وعقل تائه في ملكوت لا تعلمه، لعل اللقاء في عالم آخر!

لعل اللمسة الحانية والقبلة الدافئة ستكون في ذلك الملكوت الواسع الذي لا فناء فيه ولا موت.

ادخرت الكثير من العناق والقُبلات لأيام عجاف لا دفء فيها بعد دفء الأم! أخرجوها بصعوبة بعد توسلات منها بالانتظار لدقائق أخرى، الآن ابنة الثالثة عشر أصبحت امرأة في الأربعين من عمرها! ضاع ربيع عمرها في رياح شتوية عاصفة محملة بالأعاصير.

أُغلِق ستار النافذة، عانقها والدها بصمت مهيب يتقوى كل منهما بالآخر وكلاهما ضائع في ظلام الفقد!

ارتفع صوت صفير توقف جهاز القلب كرعدٍ شق قلبيهما معا، خرج الطبيب وقال برتابة: «البقاء لله»

قالها وغادر مسرعا، بينما لم تفارق هي ذراعي والدها كأنما تأبى الاستسلام للواقع، تردد صدى الكلمة يشق قلبها، جلست أرضًا وتذكرت حينما بكت لفراق عصفورها فقالت أمها:

«يا عزيزتي، لا تبكي فيتأذى ببكائك، قولي إنا لله وإنا إليه راجعون»

رددتها بصوت مختنق مفقود داخلها، لم تتمالك جسدها الخاوي فسقطت على الأرض.

وكأنها سُلبت أهم معنى للحياة **"الأم"**

#أحلام

أحلم بكوخٍ صغير من الخشب، أصنعه بيدي على طرف غابة مفعمة بالخضرة، يمر بها نهر عذب به قارب صغير يكفي لجولة نهرية وقت الغروب وللصيد أحيانا أخرى.

بجوار الكوخ أصنع بيئة ملائمة لتربية سلاحفي، كوخ صخري صغير يقيهم حر الصيف وبرودة الشتاء، وحشائش خضراء يحفها بركة ماء صغيرة تسمح لاستحمامهم وحصتهم من الشرب.

كل شيء داخل الكوخ وحوله بدائي، أجمع أعواد الحطب تكفي لطهو الطعام الغني بنكهة الأعشاب الطازجة التي قمت بزراعتها بنفسي، أطفالي يلهون في حقل قريب به من الخير ما يسد احتياجات بيتي من الخضر والفاكهة الطازجة.

اليوم يبدأ معنا فجرا حينما تغرد العصافير وتنشط الطيور من أعشاشها وينتهي حينما تبسط السماء أجنحتها على قرص الشمس الذهبي لتعانق دفئها فتهب نسمات الليل الباردة.

أجمع أسرتي الصغيرة ونختبئ داخل الكوخ لنخلد للنوم بعد صلاة العشاء بعدما أقص عليهم قصص قبل النوم.

أشعل سراجي ليسكب ضوءه الخافت بين دفتي كتابي، أقرأ حتى أتنفس وأسبح في خيرات عوالم عدة وأستطيع الفرار من الأحداث الشاقة وقتما شئت.

يغالبني النعاس!

لقد سرقتني القراءة لأسهر حتى العاشرة مساءً!

يكفي هذا القدر وأستكمل غدا،

أنام على بساط لين لا أشعر بشيء سوى أن روحي محلقة في سماء فسيحة مليئة بالنجوم.

لا هواتف ولا تلفاز ولا حتى ضجيج المدينة.

صوت مزعج يقطع نومي!

ما هذا الصوت العجيب

ضجيج! هل استدعيت الضجيج!

ما هذه النغمة؟

ليست بصوت زقزقات ولا حفيف ورق الأشجار!

أفتح عيني لأجدِني غارقة في عرقي.

ما هذه الشاشة العجيبة التي تضيء وتنطفئ!

هاتف! أنا أملك هاتف!

تدور الأفكار في رأسي متلاحقة،

إني غارقة في أحلام يقظتي!

لقد تأخر أولادي على المدرسة، أقوم مسرعة لأنجز مهام إعدادهم للمدرسة، أتنقل بين جدران المنزل الذي مهما اتسع لن يساوي براح الطبيعة!

الوقت يجري، لا بركة في الوقت، يمر كريحٍ عاصف.

أهبط الدرج لأشق زحام المدينة وضجيجها بروح متعبة، أقابل وجوه الصباح الناعسة الشاردة، كل منا يسعى لوجهته، أتجه إلى عملي وأجلس أمام دفاتري لأبدأ الواقع، متجردة من كل أحلام المساء التي لا أدري أهي الواقع أم ما أعيشه كل يوم!

أنا حبيسة أحلامي أحلق فيها وقتما غلبني النوم لأفيق بعدها على صفعات الواقع.

انتهيت من قراءة حكايتها ولم ينتهِ الحنين داخلي لسرد حكايتي، تأملت عينيها الناعستين بسكون، ربما يكون كاتبي الحكايات يحملون داخلهم ألف قصة لكنها غير قابلة للبوح، فليس كل ما يكمن داخل صدورنا يُحكى، وليس كل ما يُحكى يُكتب!

راودتني نفسي أن أكتب في دفترها حكايتي هروبا من مشاعر الحرج التي تنتابني عند التحدث عن نفسي وربما هروبا من نظرات

الشفقة التي أراها في أعين الناس حولي، أحيانا يكون الصمت أبلغ من الكلام، ولو سألوك ماذا بك؟

فلن تجيب إلا بالصمت، ربما صادف سؤالهم الوقت الذي خاصمتك فيه الحروف وعاندتك فصاحة لسانك وأبت الكلمات أن تخرج من شفتيك!

لماذا لا تخبرهم بمنتهى البساطة عن الخوف الذي يتملك صدرك ويطوي عنك راحتك، تلاحقك أفكارك في كل مرة تحاول التخلص منها، ما ظننناه انتهى بالأمس، ما زال ذكراه تُنغص اليوم، الذكريات السيئة لا تموت أبدا.

تائهة في دروب الحياة، تعبث بروحي كل يوم بلا هوادة، في الصباح تشرق شمسي غائمة، يُبدد صفاء السماء لون رمادي مخيف ومع حلول المساء تزداد العتمة!

أنتظر بشريات الربيع الحالم فيبادرني الخريف برياحه الهوجاء، تتراقص بخيلاء وتتمايل كأنثى لعوب، كأنما تُسقيني جرعات من الخوف الراقص فوق حُطامي!

ثم ينقشع الظلام شيئًا فشيئا فأظنه فجرٌ قريب مُحَمَّل بنسمات لطيفة تُنسيني الليل الحالك؛ فإذا بي ضائعة في غيمٍ دائم لا مفر منه!

الحكاية الأخيرة

#سبيـــــــل

توالت صرخات متتالية من أمي ثم خرجت جدتي من الغرفة لتخبر أبي أنه رزق بأنثى للمرة الثالثة، خاب ظنه ككل مرة انتظر فيها مولودًا ذكرًا ولم يشأ الله بذلك!

استقبل الخبر بوجه واجم، لم يتحرك له ساكنا، أطرق بوجهه وظل في مقعده كأنما رفضت قدماه أن تحملاه ليطمئن على أمي التي تعثرت ولادتها هذه المرة لضعف جسدها الهزيل، ثلاث ولادات في سبعة أعوام قادرة على هدم صحتها لكنها لا تكف عن ذلك ابتغاءً لرضا أبي واستجداء عطفه!

أو على الأحرى لا تملك مقاليد الرفض، تسعى بكل السبل لتنجب له ذكرا لكن لم يفلح الأمر بعد.

فشلت منذ نعومة أظافري في إسعاد من حولي بقدومي، فقط لكوني أنثى!

دخل أبي الغرفة بعد أن استقرت حالة والدتي، تحاشت النظر إليه منكسرة الخاطر فبادلها بنظرة خذلان، قالت بخيبة:

«تمنيت لو أنجبت لك ذكرا»

ربت على كتفها متظاهرا بالرضا ثم قال بصوت حزين:

«لا عليكِ، هذه إرادة الله فحسب»

مرت أعوام وصارت أختي الكبرى في المدرسة الإعدادية ولم نشعر بعطف أبي ولو مرة واحدة!

ذات يوم توالت شهقات بكاء أمي فور دخول جدتي إلى غرفتها، غادرت جدتي وتعلو وجهها نظرات جمود تخلو من أي مشاعر، سألت أختي الكبرى جدتي عن سبب بكاء أمي فقالت جدتي بنبرة حادة:

«هناك بومة لازمت سور شرفتي في اليوم الذي تزوج فيه أبيكِ من أمك، اليوم وجدت يمامة بدلا منها»

لم تفهم أختي شيئًا من كلامها لكنها أسرعت لتشاركنا عناق أمي التي عجزنا أن نخفف عنها بكائها.

في المساء وضحت لنا الصورة، دخل أبي برفقة امرأة غريبة وسَكَنَا الاثنين في غرفة أبي القديمة في شقة جدتي.

تزوج أبي من امرأة أخرى علها تلد له ذكورا وباتت أمي ليلتها تكتم شهقات بكائها في الوسادة، لا حيلة لها، أين ستذهب بثلاثة فتيات وكيف ستربيهن وحدها! رضخت للأمر وتوالت الأيام والشهور حتى رُزق أبي بمولود ذكر وأسماه سيد، ليجعله سيدا على كل من بالبيت!

الاهتمام والرعاية وحسن الملبس والمأكل لسيد وحده، حتى أن أبي لم يكمل لأختي الكبرى تعليمها وأخبر والدتي أن من تصل للإعدادية منا أتمت تعليمها وعليها المكوث في البيت حتى تتزوج!

رفضت أمي فهددها بالطرد وحدها وليربينا كيف يشاء فوافقت رغما عنها، فقط طلبت منه أن يسمح لها بعمل بعض المخللات وبيعها حتى لا تثقل عليه بطلباتها فوافق.

كانت تلك الخطوة بداية التحرر من سطوة أبي، بدأت أمي في العمل وساعدناها في ذلك.

العام الذي تلاه أتمت أختي التالية المرحلة الإعدادية وسادت حالة من الحزن بيننا حتى اقترحت أختي الكبرى على أمي أن تساعد أختنا في التعليم المنزلي وتذهب المدرسة فقط

لأداء الامتحان سرا دون علم أبي، ساعدنا في ذلك انشغال أبي في حمل زوجته التي وضعت توأم إناث!

نجح المشروع الذي بدأته أمي وذاع صيتها في المناطق المجاورة حتى فتحت محلا كبيرا لبيع المخللات وباعت لأصحاب المطاعم وبعض الفنادق واشتهرت باسم "مخللات أم البنات" ساعدنا العمل في محل والدتي في الخروج سرا لجامعاتنا، فقد

التحقت أختي بكلية الآداب وأخرى بكلية الصيدلة والتحقت أنا بكلية الطب.

مرض أبي وبدأ في المكوث في البيت فترات طويلة، زاد شجاره مع أخي المدلل الذي لم يستطع تجاوز المرحلة الابتدائية لعدم تحمله عناء المذاكرة والذهاب للمدرسة.

كل ليلة نسمع شجار أبي وزوجته بسبب سوء أخلاق سيد الذي يتعامل مع والدي برعونة وينفق الكثير من الأموال دون حساب.

بدأ في التعرض لي ولأخواتي، يريد أن يلقي بنفوذه علينا، كنت أتأهب لأداء أول اختبار لي في السنة السادسة، حاول منعي من الخروج بحجة أني أخرج كل يوم، علا صوت شجارنا فخرج أبي وانهال عليَ بالضرب، لطمني على وجهي حتى سقطت أرضا وأكمل سيد بركلي بقدميه حتى أنقذني الجيران من بطشهم، أحيانا نؤثر الصمت في مواقف لا يُجدي فيها العتاب!

توالت النزاعات تارة بيننا وبين أخي وتارة بين أخي وأبي حتى جاء يوم سمعنا صرخات زوجة أبي تستغيث فهرولنا إليه.

«لقد سرق الولد ذهبي وأموال أبيه»

قالتها زوجة أبي بحرقة وهي تلطم فخذيها بحسرة، لاحظت أبي يمسك ذراعه الأيسر ورأسه مائلة، سألته أن يخبرني ماذا به، لم يستطع الرد من شدة الألم فصحت فيهم:

«أبي يمر بنوبة قلبية».

أعطيته دواء وأجريت له الإنعاش القلبي حتى وصل الإسعاف ونقلناه إلى المشفى.

لأول مرة يراني أبي بالمعطف الأبيض!

نظرات حائرة مشدوهة لا يعلم كيف لابنته التي لم تتجاوز الإعدادية _كما يظن_ أن تعطيه الدواء وتباشر حالته مع الأطباء بل وأنقذته من الموت!

بعد خروجه من المستشفى أصررت أن يبيت في شقتنا حتى يكون تحت ملاحظتي، تأمل البيت الذي لم يدخله منذ سنوات عدة، نظر للمكتبة الكبيرة التي توسطت الغرفة، الأدوات الطبية وعظام التشريح المعلقة في كل مكان، تأمل أختي الوسطى وهي تقرأ روشتة الدواء وتناقشني في بعض الأدوية بمصطلحات طبية لم يفهمها.

قطع نقاشنا بصوت محشرج:

«كيف؟»

تبادلنا النظرات وأطرقنا برأسنا، كرر سؤاله:

«كيف فعلتن ذلك؟»

أجابته أمي بصوت مختلط بالبكاء:

«بسنوات عمري الماضية، بكدي واجتهادهن!»

بكى أبي وكانت أول مرة أرى الضعف في عينيه، أبي أخفى حنانه خلف غلظته طيلة هذه السنوات، ظنا منه أن الأنثى لا تدلل ولا تتعلم ولا فائدة منها سوى أنها تُعد الطعام للرجل وتنظف البيت!

الآن تيقن أن اختيار الله له في إنجاب الإناث كان خيرا مستتر، استوعب الدرس بعدما حرمنا منه في أشد الأوقات احتياجا له، لكنه كان سببا في أن نؤمن بأن الأحلام كالطريق الطويل، فقط عليك السعي وحتمًا سيأتي اليوم الذي تصل فيه إلى وجهتك حتى لو كثُرت عثراتك!

تمت

توقف القطار الآن عند المحطة التي ستنزل فيها حورية، أيقظتها ثم أعطيتها دفترها بابتسامة امتنان، شكرتها على حكاياتها التي دفعت عني الشعور بالملل، وشكرتها أكثر لأني وجدت نفسي بين سطور حكاياتها الممتعة.

أخذت الدفتر وفتحته عند حكايتي، ابتسمت وقالت:

«علمتِ الآن كيف أجمع حكاياتي؟ أبطالي يدونونها بأنفسهم»

ثم مسكت القلم وكتبت:

انتهت حكاياتي ولن تنتهي الحكايات بعد!

التعريف بالكاتبة

دعاء إبراهيم، من مواليد مدينة المنصورة (محافظة الدقهلية) عام 1990، حاصة على ليسانس آداب بقسم علم النفس جامعة المنصورة عام 2011

أعمال أخرى للكاتبة

رواية مدينة شبعت من الموت

صدرت في عام 2021

الفهرس

الحكاية الأولى شتاء ديسمبر.....11
الحكاية الثانية رسائل من مجهول 17
الحكاية الثالثة قلوب بلا مأوى 61
الحكاية الرابعة حكاية غَزَل 67
الحكاية الخامسة شطائر بطعم الغربة 81
الحكاية السادسة نقـــرة 87
الحكاية السابعة حكاية يسر 103
الحكاية السابعة فـوضى 125
الحكاية الثامنة الغرفة الخاوية 129
الحكاية التاسعة شمـوع المـوت 143
الحكاية العاشرة الحـاضـر الغـائب 159
الحكاية الحادية عشر وأد القلوب 168
الحكاية الثانية عشر على هامش الخيانة 175
الحكاية الثالثة عشر العـرافـة 179
العرافة 180
حكايات مبعثرة 182
#أحلام 194
الحكاية الأخيرة #سبيـــل 199